

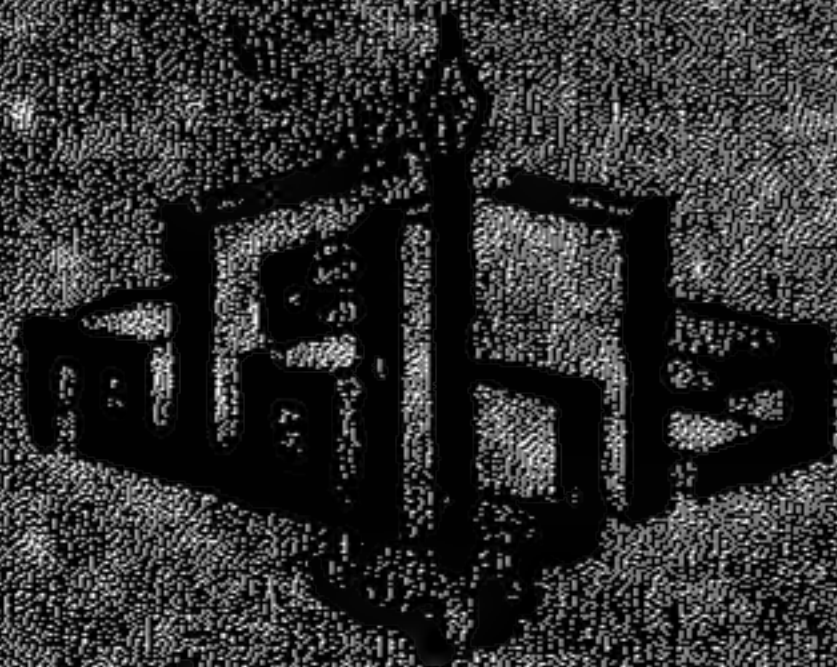
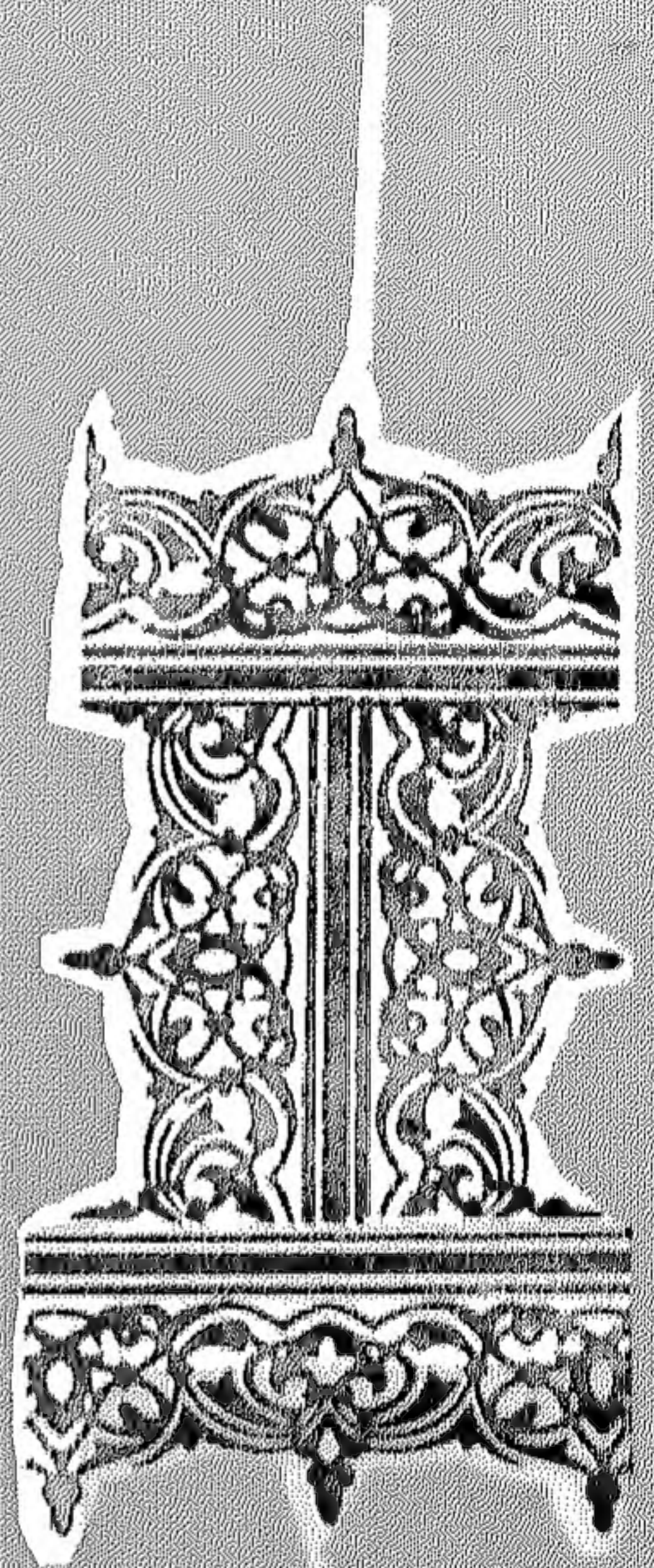
نفسية النكاح

تأليف

عبد الحميد صدقي

ترجمة

الدكتور كاظم الجوادى



نَفْسِي الرَّابِعُ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

دار القلم الكويت - شارع السور - همارة السور ص.ب ١٤٦١ •
هاتف ٤٢٥١٦٠ - برقية : نوزيمكو

نفسي النسخ

تأليف

عبد الحميد صديقي

ترجمة

الدكتور كاظم الجوادى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقْدِمَةُ المَرْجَمِ

حين ظهرت الطبعة العربية الأولى من هذا الكتاب في أوائل عام ١٩٦٩ كان المؤلف الأستاذ عبد الحميد صديقي قد أعد الطبعة الثانية المنقحة والمزيدة من الأصل الانكليزي ، فظهرت عام ١٩٦٩ أيضاً ، وفيها تنقيحات و (خاتمة) في نهاية الكتاب لم تكن في الطبعة الأولى .

واليوم وبعد أن مضت عشر سنوات على ظهور الطبعة العربية الأولى والطبعة الانكليزية الثانية المنقحة ، أتقدم بالطبعة العربية الثانية بعد أن أضفت إليها (الخاتمة) وبعد أن راجعت الترجمة مراجعة شاملة توخيت فيها تعديل ما عدله المؤلف في طبعته الانكليزية الثانية وتوضيح بعض العبارات وتقويم أسلوبها .
والله أسأل أن يمن عليّ وعلى المؤلف بقبول العمل وأن ينفع به . وله الحمد أولاً وآخراً .

ذو القعدة ١٣٩٩
تشرين الأول ١٩٧٩

شكر

تفضل الأستاذ الدكتور محمود الأمين بشرح غوامض تاريخية
وردت في بعض الأماكن من الكتاب .

وتفضل الأخ الدكتور ياسين خليل بمراجعة فصل (فلسفة
هيجل للتاريخ) وأبدى ملاحظات قيمة حول بعض المصطلحات
الفلسفية في الترجمة ، وشرح بعض الأمور الغامضة ، يجهلها
القارئ في حاشية ذلك الفصل مع حرفي (ي . خ .) .
لذا أتقدم إليهما بالشكر الجزيل .

المترجم

إهداء الطبعة الإنكليزية الثانية

إلى

خالد أحمد صديقي

الذي حرمتني وفاته وحرمت كثيرين مثلي
من بركات صديق وفيّ

بَيْنَ يَدَيِ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْكِتَابِ

تأتي هذه الطبعة الثانية بعد أن مضى وقت طويل جداً على ظهور الطبعة الأولى ، وليس في ذلك ما هو غير مألوف أو غير متوقع ، فهذا الكتاب يبحث في مشكلة التفسير الفلسفي ، فلا يمكن أن يتوقع له رواج عاجل . ولكن ما يدعو إلى الرضى ، أن هذا الكتاب بما عالج وما أغفل ، قد أثار اهتماماً في بعض الأوساط . فقد قررته بعض الجامعات كتاباً دراسياً وأوصت جامعات أخرى باتخاذها مصدراً إضافياً لتلاميذ الدراسات العليا في اختصاص التاريخ . وقد وجد فيه تلاميذ الفلسفة والدراسات الإسلامية كتاباً مساعداً وطلبوا إعادة طبعه . كذلك ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونشر في الكويت . وقد راجعت الكتاب وبذلت غاية الجهد لتحسين طباعته . وإنني لأشكر الدكتور عابد أحمد علي ، عميد الدراسات الإسلامية في الجامعة الهندسية بـلاهور سابقاً على ما أبداه من توجيه ، والسيد عطا حسين على تصحيحه مسودات الطبع ، وبشير أحمد خان على نشره الكتاب باللغة الانكليزية .

عبد الحميد صديقي

حزيران ١٩٦٩

بَيْنَ يَدَيِ الْكِتَابِ

لقد كتبت هذه المقالات في أوقات مختلفة من السنتين الماضيتين ، وكلها كانت قد نشرت في بعض الصحف الشهيرة في باكستان ، سوى المقالة الثانية .

إن كل مقالة من هذه المقالات مستقلة بنفسها ، ولست أدعي أنها تكون باجتماعها مع بعضها كتاباً ، إلا أن فيها شيئاً من اتحاد وجهة النظر من حيث أنها جميعاً تبحث في جانب واحد من المعرفة الإنسانية ، ألا وهو فلسفة التاريخ .

إنني مدين بالشكر الجزيل لمحرري وثائري مجلتي (إقبال) و (الأدب الإسلامي) لتفضلهم بالسماح بنشر هذه المقالات ، وأخص محرري مجلة (إقبال) بـلاهور الذين يستحقون مني شكراً خاصاً إذ قدموا لي الكثير من المقترحات القيمة .

وأنا مدين بالشكر أيضاً لمولانا أبي الأعلى المودودي ، ومولانا أبي الخير المودودي ، ومولانا نعيم صدّيق ، والدكتور وحيد قرشي والأستاذ خورشيد أحمد ، وأخي افتخار رسول لما قدموه من إرشاد ومعونة ومساعدة .

عبد الحميد صديقي

آب ١٩٥٥

قَالَ

بِقَلْبِي بِرَأْفَتِهِ

وَيَسْأَلُنِي

المقدمة

يرجع أصل فلسفة التاريخ إلى رغبة البشر في أن يجدوا
الجواب الشافي لسؤالين جوهريين هما : لماذا حدث ؟ وكيف
حدث ؟

ولقد بدأ الإنسان في مرحلة مبكرة جداً من ارتقائه في
محاورة فكرة اعتبار المصادفة قوة محرك في الكون ، واجتهد
كثيراً لكي يكتشف القانون المسيّر الذي يدل هذا الكون على
وجوده دلالة تدركها الحواس .

ولقد كان الذين سجلوا حوادث الماضي يشعرون بهذه الرغبة ،
وحاولوا أن يشبعوها بأن انتقلوا من مجرد تسجيل الحوادث
تسجيلاً بسيطاً إلى أسلوب تاريخي عملي بنوا فيه كل حادثة على
حادثة أخرى ، وشرحوا كل واقعة بواقعة أخرى ، ووصفوا
الواقعة بدلالة الأخرى .

ولكن الإنسان لا يمكن أن يقنع بهذا أيضاً إذ لم يوضح له
هذا الأسلوب إلا ظواهر منفصلة ، أمّا ما يريده فهو أن يعرف

« قصة الكون » التي لم تكن هذه الأحداث إلا بعض أجزائها .

وقبل أن تتضح الفكرة بزمان طويل كان المعتقد أن كل وجود البشر عملية واحدة لا تعتبر فيها الحوادث الواضحة المعينة التي هي موضوع التاريخ المكتوب سوى مظاهر عرضية . وهكذا كان الانتقال من الكتابة التاريخية المعروفة في سرد الحوادث سرداً قصصياً مع ذكر زمانها ومكانها الثابتين إلى التفسير الفلسفي للتاريخ الذي يفسر هذه الحوادث تفسيراً منطقياً، ويحاول - فضلاً عن ذلك - أن يكتشف القانون الذي « ينظم هذه الحوادث ويحاول أن يجد في حدوثها معنى يعطي لحوادث الماضي تسلسلاً منطقياً ، وينير الحاضر ، ويضيء بعض جوانب المستقبل » (١) .

إن فلسفة التاريخ يجب أن تبدأ من فكرة أن التاريخ يحكمه قانون ما ، « حق ولو كانت المصادفة هي هذا القانون . ولكن إذا كان يجب اعتبار المصادفة قانون التاريخ فإن فلسفته ستنتهي حيث بدأت ، إذ أنه إذا صح في هذه الفلسفة أن أمور البشر تخضع للحوادث العمياء التي لا يقيدها نظام فلن يكون لهذه الفلسفة شيء آخر تضيفه إلى ذلك » (٢) .

والأمر الثاني أن الحياة البشرية ذات معنى ، ولذلك نرى ان

(١) Max Nardau, The Interpretation of History, P.44 .

(٢) المصدر نفسه .

أي إنسان سويّ إذا أراد أن يأتي عملاً شعورياً فكثّر قليلاً قبل أن يقوم به ووضع نصب عينه غاية معينة. ولكن يجب أن لا نعتبر هذا الفرض يعني أن الحوادث التي منها يتكون التاريخ، ذلك المركب الجميل والمعقد في نفس الوقت، كلها حوادث تمتّ وفقاً لغاية قد عيّنت من قبل. « إن سلسلة أحداث العالم أو حركة الكون في الزمن مجردة من الغاية حتماً إذا عطينا بالغاية هدفاً معروفاً من قبل — هو مصير ثابت بعيد تفسير المخلوقات كلها نحوه. إن اعتبار أحداث العالم ذات غاية بهذا المعنى معناه أننا نسلبها أصالتها أو صفتها الخلاقة. إذ ليس في التاريخ ما يسوغ الزعم بأن عقلاً ذكياً سامياً خارقاً يستخدم الإنسانية الساذجة ليعقق ما يريد. فهذا الكون كيان لم ينته صنعه، فهو دائماً في توسع وامتداد. وبذلك يكون مجالاً محفّزاً لنشاط الإنسان نشاطاً حرّاً خلاقاً يستطيع به أن يسيطر على العالم المادي من جهة ويبلغ بقواه الفردية درجة الكمال من جهة أخرى. « فهذا الكون كون نام قابل للتوسع والامتداد إلى مدى غير محدود. إذ ربما يكن في أعماق كيانه حلم مولد جديد. إن الكون ذو غاية، بمعنى واحد فقط هو المعنى الذي يدل على أنه انتخابي بطبيعته وأن طريقة إلى الإتيان بشيء جديد هو العمل الدائب على حفظ الماضي وإضافة شيء إليه » (١).

Muhammad Iqbal, The Reconstruction of Religious Thought in (١)
Islam, P. 55.

والأمر الثالث أن الإنسان (الذي هو محور فلسفة التاريخ) ليس مجرد مركّب معقد من الكهيزات (الالكترونات) والبروتونات أو جمعة نفسية مملوءة بالدوافع النفسية . ولكنه مخلوق معقد إلى حد عجيب ، ولا يمكن تحليله تحليلًا علميًا . فقد كان يشعر دائماً أنه شيء أكثر من مجرد مختبر كيميائي تسيطره غريزة الجنس أو غريزة الجوع . . . إننا نجد في التاريخ الاجتماعي للبشر مفامرات لا تعد ولا تحصى لم يخترقها أبداً ما يسمى بالأشعة المجهولة ، ولم يحلم بها أرقى الحيوانات عقلاً .

كلنا نعلم أن الإنسان قد قيّد داخل حدود وجوده كإنسان ، وأن حياته تعيّن بالقوانين الطبيعية والكيميائية ، فهو قد أوجد في عالم لا يفي بحاجاته جميعاً إلا إذا جدد وتعب . لذا فإنه يشعر بأن حوله محيطاً مؤلماً جداً وهو يحاول أن يجعله مبهجاً .

إن الرغبة في تحقيق هذا الهدف هي غاية كل الوجود الإنساني ، وغاية سعي البشر منذ القدم . « ولو وضعت الأسباب التي تكن وراء أعمال الإنسان في أبسط التعابير لظهر لنا أن إرادة أي أمرىء لا تقررهما إلا حاجاته التي تظهر في حالته الشعورية بشكل شعور بالألم » .

وهكذا نجد أن هناك نوعاً من التوتر تسببه الذات الإنسانية إذ تغزو المحيط المادي ، والمحيط إذ يغزو الذات الإنسانية ، وإن انتصار العالم المادي الذي ظل دائماً مستحوذاً على انتباه الإنسان وإرادته ، قد جعل كثيراً من المفكرين يعتقدون أن البيئات

المادية هي التي تفرض شكل مصير بني الإنسان . وقد أخذ (بَكل راتسل Buckele Ratzel) فضلاً عن (كوميت Comete) (وسبينسر Spencer) و (آلان دريبر Alan Draper) على عاتقهم وضع هذه القوانين . وكانوا يتجنبون ذكر العنصر البشري ، ولكن تأكيدهم على العالم المادي جعلهم يحدون التاريخ من صفته البشرية ، فلا يفرقون بين الإنسان والأحياء الأخرى العليا منها والدنيا ، وبين النبات والحيوان .

وكما أن التفسير الجغرافي للتاريخ مقبول لدى علماء الفيزياء ، فإن التفسير الاقتصادي للتاريخ أكثر موافقة للعقل عند المؤرخين وأكثر منهم عند علماء الاجتماع . فمفتاح التاريخ يعتبر الآن هو الإنتاج الاقتصادي للإنسان . وطبيعي أن هذه النظرية كسابقتها تستند إلى حد لا يستهان به على النظرة الجغرافية للتاريخ .

وتقرر هذه النظرية أن العوز الاقتصادي النسبي هو الحافز لكل تقدم ، لذا فإن عدم التناسب بين حاجات الإنسان التي لا حدود لها وبين الوسائل المحدودة هو الألم الذي تسمى البشرية إلى تسكينه وتهديته .

وحق لو نظرت إلى هذه النظرية نظرة سريعة عابرة فإنك ستقتنع بأنها قد تجاهلت الشخصية الإنسانية تجاهلاً كلياً . والحقيقة الواضحة التي لا مرأى فيها هي أن على البشرية أن تعتمد على العالم المادي لإزالة الألم المتأتي من حاجاتها الطبيعية ، وبالرغم من أن الإنسان ليس هو خالق هذا الكون ، فإن لديه الإرادة والمقدرة

على تسخير مصلحته . وهكذا يكون الإنسان في هذا العقد المبني على الأخذ والعطاء بينه وبين محيطه الطبيعي أو الاقتصادي دور فعال جداً، يُظهر به الإنسان ما في وجوده من مكنونات. يقول إقبال : « إن مهمة الإنسان أن يساهم في أعمق مطامح الكون من حوله ، وأن يقرر شكل مصيره هو ومصير الكون ، تارة بتكليف نفسه حسب قوة الكون ، وتارة ببذل كل طاقته لصياغة قوى الكون بالشكل الذي يتفق وأهدافه (أي أهداف الإنسان) وغاياته » (١) .

وهنا يبرز السؤال التالي : هل في وسع الإنسان أن يصل إلى هذه الغاية بمجرد السيطرة على محيطه المادي ؟

هنالك عدد غير قليل من الذين يعتقدون أنه يمكن حل الأمور المعقدة في حياة الإنسان بواسطة القوانين الطبيعية . وهم يعتقدون أن التقدم السريع الذي استطاع الإنسان أن يحققه في مجال السيطرة على قوى الطبيعة حقيقى بأن يمنعه من الأمن والسعادة خيراً مما كان له في العصور السابقة . ولكن لو أمعنا النظر لوجدنا أنه إذا كانت الجرائم واستعمال الشدة والعنف في

(١) المصدر نفسه ، ص ١٢ .

وتجد نصاً مشابهاً في ص ١٩ من الترجمة العربية لمباس محمود المطبوعة في القاهرة عام ١٩٥٥ بعنوان تجديد التفكير الديني في الإسلام . تأليف محمد إقبال . (المترجم)

تلاشٍ ، وإذا كانت قيمة حياة الإنسان قد ازدادت ، فليس ذلك
لانتصار الإنسان على العالم المادي .. بل لعله نتيجة لضعف
الإرادة ، والكسل ، أو لعله نتيجة لوجود رقابة وسيطرة أكثر
في الدولة الراقية ، وإن كل اعتداء أو تجاوز يكتشف حالاً
ويعاقب عليه ، حتى إن الإنسان ليعيش في خوف نافع من سلطة
موجودة دائماً في شعوره تراقبه .

إن الإنسان المتمدن ليس أحسن 'خلقاً' من الإنسان المتوحش ،
وإنسان اليوم لا يختلف عن الإنسان في أقدم العصور الحجرية .
في أي وجه يعتبر الفوضوي الذي يرمي قذيفة دون أن يلتفت
إلى أنها قد تمزق الأطفال والنساء إرباً أسمى من المقاتل المتوحش
الذي يهاجم أعداءه بالليل وينذبح الرجال والنساء والأطفال ؟

هل إن صاحب الشركة الخبير بالمضاربات التجارية ، الذي
يكسب مئات الملايين ويسرق آلاف الأسر من كل ما لديها دون
أن يتأثر أو تتحرك مشاعره ، ويقودهم بذلك إلى الشقاء واليأس
وحق إلى الانتحار بينما يغتني هو بشمرة أتعاب حياة أهل هذه
الأسر ، هل إن هذا أقل إجراماً وتلبساً بالسرقة والتقتيل من
قطّاع الطرق العريقين ؟ ..

إننا نجد أن في الاختراعات الفنية تقدماً لا شك فيه ، ولكن
هذا لا يدل أبداً على أي تقدم في سعادة البشر ، إذ أن هذه
المخترعات تسهل على مخترعيها إشباع الأنانية الخبيثة في نفوسهم .
بل لقد أصبح كل اختراع وسيلة لإساءات جديدة لم يكن يمكن

القيام بها أبداً — أو بهذه السهولة — باستعمال آلات أقل منه كمالاً.

وهكذا نجد أن التقدم العلمي — وإن كان أحد علامات التقدم الإنساني — لا يضمن التقدم للبشر . وأنه ليندر أن ينقطع خط التقدم العلمي إلا عندما تحل بالمجتمع كارثة تدمره ، إذ أن أي شيء يتم تحقيقه في العلوم المادية يستغل اعتيادياً الإتيان بأشياء أخرى جديدة وتحسين ما تم تحقيقه . أما أمر تقدم الإنسانية فيختلف عن هذا ، إذ ليس في حياة الإنسان الأخلاقية تقدم حتمي ، فهي معرضة للتأخر كما هي معرضة للتقدم ، وإن ماضيها لا يضمن مستقبلها .

يتضح من ذلك أن الإنسانية ليست قط مستقرة ثابتة ، بل هي في حركة دائبة ، ولكن حركتها ليست تقدماً دائماً . فما هو إذن القانون الذي يسيطر على حركتها ؟

لقد قلت آنفاً . إن كل الأعمال التي يقوم بها الناس أفراداً أو جماعات ، طبقات أو شعوباً ، إنما يقومون بها دفاعاً عن سماعتهم ، أي عن حياتهم ، وحماية لأنفسهم من الألم . ولأجل بلوغ هذه الغاية لا بدّ الإنسانية من أن تبذل الكثير من الجهد . وهذا يدفعها إلى العمل ، فتقهر المادي وبذلك تخطو خطوة إلى الأمام في طريق التقدم . ولكن انتصار الإنسان هذا يزيد حياته في كثير جداً من الأحيان ألماً بدلاً أن يريحه من ألم الحاجة المادية ، إذ أن أولئك الذين وُهبوا ذكاء أكثر يفلحون في سرقة نصيبه الشرعي من كنوز الطبيعة ، ويستطيعون أن يبرروا

أفعالهم منها كانت ظالمة وجائرة على بني الإنسان بقانون أخلاقي مبني على القوانين المسادية . وهكذا تتأخر الإنسانية بدل أن تتقدم . فإن تقدمها الحقيقي يمكن في أن ظروفًا ملائمة 'تخلق من الطبيعة نفسها وأنها تنتقل مع هذه إلى الإنسان السوي . فالخطوة الأولى واجب العلم ، والثانية واجب الأخلاق ، إذ بالأخلاق وحدها يستطيع المرء أن ينجو من الإغراء الذي لا يطاق والذي يضعف النسيج الخلقي عند بني الإنسان . وبتمبير آخر يمكن أن يقال : إن التقدم يكون بسيطرة المبادئ الأخلاقية على قوى الطبيعة . وقد حوى التاريخ شواهد كافية على أن القوة التي لا تقيد الأخلاق تصيب العالم بهزات عنيفة قاسية .

النظرة الاحيائية للتاريخ

« هل يمكننا أن نحيا حضارة مندثرة ونعيدها إلى سالف مجدها وعظمتها ، ؟ هذا سؤال نوقش وبحث كثيراً في المحافل الفكرية العلمية . فكثير من الناس يعتقدون أن للحضارة أطواراً من العمر تمر بها تشبه أطوار العمر التي يمر بها الإنسان . « فالطور الأول طور الفتوة والقوة وهو عصر الحكومة القوية والتوسع العسكري ، وفيه تكون الفنون غير منقّاة أو مهذبة ولكنها قوية . ثم تنمو الحضارة وتنضج ، وحينذاك يكون عصر ذهبي للفن والأدب .. ثم تبدأ ، دون أن نشعر ، عملية الانحطاط . فيضعف الإلهام في الفن والأدب ثم لا يلبث معينه أن ينضب . والروح تحقق غاية إمكانياتها في عالم الواقع بشكل شعوب ، ولغات ، وعقائد ، وفنون ، ودول ، وعلوم . ومضى حصلت الغاية — أي أن كل ما في الإمكانيات الداخلية نُفِّذَ وصار في عالم الواقع شيئاً ظاهراً — فلإنها تتصلب وتفسد ، ويجمد دمها وتنهار قوتها ، وتصير مدنية — وهي الفترة التي ينطفئ فيها ما في

الروح من نار، وهذا الذي يحصل في الداخل والخارج والنهاية التي تنتظر كل حضارة في هذه الحياة هو مآل كل أفول تاريخي،^(١).

على هذا النمط - مع اختلاف يسير - سار تاريخ حياة بابل وآشور ومصر واليونان وشبه جزيرة العرب . والتاريخ مشحون بالأمثلة التي تدل على «أن موجات متماثلة لا نهاية لها من الحضارات البشرية قد ظهرت في الأزمنة الطويلة ، وارتقت كلها رقياً هائلاً وانتعشت في ظروف زاهرة من الحياة ثم انكشت وتلاشت ، وصار سطح الزمن مرة أخرى فلاة نائمة ،»^(٢).

ويستنتج من ذلك منطقياً أن جميع حضارات بني الإنسان قد وصلت أوجها يوماً ما ، وبعد أن استتمت بأيامها الزاهرة اختفت في ليل لا نهاية له ، لذا فالحديث عن أمر إحيائها إنما هو مثل الحديث عن إعادة أيام طفولة شخص ما ، وهو ما لا يمكن حدوثه إلا في الخيال .

إن تحليل هذه النظرية تحليلاً دقيقاً يوضح حق الرجل البسيط أن الذين يضعون مثل هذه النظريات لا يعنون بالحضارة غير المظهر الخارجي لمستوى الرقي الذي استطاعت أن تبلغه طائفة أو أمة من الأمم ، فهم يركزون انتباههم على المظهر الخارجي ، ولا يدبركون أبداً أن هذا الذي يظهر لعيونهم قد

(١) . Oswald Spengler, The Decline of the West, Vol. I, P. 106 .

(٢) المصدر نفسه .

حصل لوجود دافع داخلي ينبض في صدور البشر . فالمذيع والمذيع المصور والطيارة ليست هي ذاتها حضارة ، ولكنها علامات على تقدم البشر في عالم العلم ، فهي لا تدل إلا على أن الإنسان يسعى للسيطرة على الطبيعة . فكان الحضارة الحق عقل الإنسان (الذي هو مصدر كل ما يقوم به الإنسان من عمل) لا العالم المادي . إن الحضارة لا تعني طرازاً معيناً من العيش ، وإنما اتجاهات فكرياً وطريقة في التفكير 'يؤديان آخر الأمر إلى إيجاد نوع معين من السلوك الإنساني ، أو هي كيان الأمة الفكري الذي تستضيء به في كل ما تأتي من عمل .

« إن المعلومات التاريخية التي لدينا تبين لنا أن التاريخ — حتى هذه الساعة — قد تكرر حوالي عشرين مرة كان فيها جميعاً يوجد مجتمعات إنسانية من النوع الذي ينتمي إليه مجتمعنا الغربي . مثال ذلك أن الرومان واليونان في العصور السالفة وشعوب الغرب اليوم كلهم ينتمون إلى حضارة مادية واحدة بعينها ، على ما بينهم من بون شاسع في الزمان والمكان . . بل إنك لتجد في العالم الآن أمماً عديدة قد مزقتها المنافسة القومية ، وهي مع ذلك متفقة في المشكلات الأساسية للحياة الإنسانية . خذ مثلاً لذلك انكلترا أو أمريكا أو اليابان أو ألمانيا . فهم جميعاً يعالجون مشكلة العلاقة بين الإنسان والإنسان ، وبين رأس المال والعمال ، وبين الفرد والمجتمع بطريقة واحدة . فلماذا كان هذا التشابه المعجب بين هذه البلدان ؟ لأن نفس خيط (المادية) يمر من

سداة النسيج المزوق لحياتهم المتعددة الجوانب ومن لحيته ، ففي ضجيج الحياة وضوضائها - منها اتسعت وامتدت ، وفي تضارب العواطف والمصالح ، وفي إلحاح الدوافع العاجلة وضغطها ، وفي صخبهم للحصول على المطالب المتسمة بالآثانية - تجد أن أبصارهم لا تزول عن غايتهم المثلى - وهي تحقيق وسائل الراحة المادية . إن التطلع إلى هذه الغاية المثلى لا يقتصر في تجلّسه على اقتصادهم وسياستهم ، وإنما يكاد يشمل كل جوانب مجتمعاتهم تقريباً ، وكل المجالات المهمة في حياتهم - فنونهم وعلومهم وفلسفتهم ودينهم وقانونهم وأخلاقهم وسلوكهم وتقاليدهم ومن ذلك شكل العائلة والزواج - وخلاصة القول : إنها غاية 'تحسّس' بها تنبض في كل طريقة حياة المجتمع الغربي تقريباً وفي فكره وسلوكه .

إن الحضارة العظيمة ليست قط مكاناً يكدر فيه حشد من الظواهر الحضارية المختلفة تكديساً تكون فيه الواحدة يجنب الأخرى وليس بينها وبينها علاقة ، وإنما هي الحضارة التي تمثل وحدة أو كياناً مستقلاً يتغلغل في أجزائه المختلفة مبدأ أساس واحد ، ويتصل بالقيمة الأساس التي تقوم منها مقام الفكرة الرئيسية والعقل . ولو درسنا عن كذب بنيان المجتمع الحديث لوجدنا أنه 'مقام' على أساس 'مادي تجريبي لا ديني دنيوي' ، وأن حضارته مبنية على هذه القيمة الجديدة التي أصبحت بمثابة مبدأ وأقيم كيانها كله حولها . ليس من شك في أن مدنيات قد ظهرت وزالت ، ولكن الحضارات أفلحت في كل مرة في أن تعود إلى

الحياة تارة أخرى عند أمم غير التي كانت عندها من قبل. «فحين
انهارت المدنية الصينية القديمة في القرن السابع قبل الميلاد لم يمنع
انهيارها المدنية الإغريقية المعاصرة لها من أن تمضي في الصعود نحو
أوج رقيها في الجهة الأخرى من العالم القديم . وحين انقرضت
المدنية الإغريقية الرومانية آخر الأمر بسبب آفتي الحرب
والطبقات اللتين استشرتا في القرن الخامس والسادس والسابع
للميلاد لم يحل ذلك دون ميلاد مدنية جديدة في الشرق الأقصى
في تلك السنين التي قاربت الثلاثمائة » (١) .

إن تكرار الحضارة هذا ممكن لأن أية طائفة أو أمة تستطيع
أن تتخذ أية نظرة للحياة متى شاءت . وهذه النظرة تضيء لونها
الخاص على كل الأعمال .

فإذا اعتادت شعوب أن يكون لها سلوك ما ، فإن سلوكها
هذا يكون لها حضارتها . فحقيقة الحضارة بنيان تشيده النظرة
المسيطرة دائماً والتي تظهر في أعمال متعلقة بالعادة التي درج عليها
مزاج خاص . إن الحضارة أساس المدنية ، والمدنية بصورة عامة
تعبير عن الحضارة في الحدود التي تفرضها الظروف . لذا فقد
يكون اختلاف بسيط في المدنية بسبب تغير الزمان والمكان .
ولكن إذا كانت النظرة إلى الحياة واحدة فلا بد من أن تتشابه
الحضارات . إن الطبيعة الإنسانية ، على كثرة تقلبات الزمن ، لم

يطرأ عليها أي تغير مطلقاً . فحب السلطان ، والتحمس للعلم ،
والرغبة في البناء ، والتضحية من أجل الصعاب - كل هذه
البواعث توجه أعمال البشر حتى هذا اليوم . والماضي الذي تولّى
هو نفسه الذي يأتي أمامنا بلباس المستقبل ، ونحن نظن أن شيئاً
جديداً قد قام على أشلاء الماضي وأنه ليس بين ذلك (القديم)
وهذا (الجديد) شبه . ولكن هذا تجاهل شديد للحقيقة الواقعة .
فالحرب والطبقات كانا معنا منذ ظهرت المدنية الأولى فوق
سطح الأرض في الحياة الإنسانية البدائية . فهل كانت الحرب
الأهلية ^(١) مثلاً الحادثة الوحيدة أم أن حوادث تاريخية أخرى
فيها من الشبه والتقارب ما يجعلنا نعدّها والحوادث المشابهة لها
مثلين عديدين لصنف واحد من الحوادث تكرر التاريخ في
أشخاصهم إلى حد ما في الأقل ؟ إن الأزمة التي ظهرت في التاريخ
الأمريكي في شكل الحرب الأهلية ، قد كررت دون ريب
وبشكل مهم في الأزمة المعاصرة التي حدثت في تاريخ المانيا
وذلك في حروب بسمارك بين عامي ١٨٦٤ و ١٨٧١ . ففي كلتا
الأزميتين كان الاتحاد السياسي غير المتكامل يهدد بالانحلال التام .
وفي كلتا الأزميتين كانت الحرب هي الفاصل بين انحلال الاتحاد
وزواله ، وبين إقامته على أسس متينة وبشكل قوي . وفي كلتا
الأزميتين كان النصر حليف أصعب فكرة الاتحاد القوي ، وفي

(١) يقصد الحرب الأهلية في الولايات المتحدة .

كلتا الأزميتين كان أحد أسباب انتصارهم أنهم قد فاقوا أعداءهم
فنياً وصناعياً ، وفي كلتا الأزميتين أيضاً كان يتبع انتصار قضية
الاتحاد توسع "صناعي" هائل أحال كلا من الولايات المتحدة
ورايخ (دولة) ألمانيا الثانية في ما بعد الحرب إلى منافسين
صناعيين هائلين لبريطانيا العظمى . وهنا نكون قد وقفنا على
مثل آخر لتكرار التاريخ . ففي القرن المنتهي في حوالي عام
١٨٧٠ ربما بدت الثورة الصناعية في بريطانيا العظمى حادثة
تاريخية فريدة ، ولكنها قد أصبحت تبدو منذ عام ١٨٧٠ على
حقيقتها ، وهي أنها مجرد أول مثل للتحويل الاقتصادي الذي
كان مقدراً له أن يحدث آخر الأمر أيضاً في عدد من البلدان
الغربية الأخرى وفي بعض الدول غير الغربية أيضاً . وفوق ذلك ،
فإننا إذا حولنا انتباهنا من الجانب الاقتصادي العام في التصنيع
إلى الجانب السياسي العام في الوحدة الاتحادية Federal Union
رأينا أن تاريخ الولايات المتحدة وألمانيا في هذه النقطة يتكرر
مرة أخرى في تاريخ بلد ثالث - وهو في هذه المرة ليس بريطانيا
العظمى وإنما كندا ، التي دخلت المقاطعات المكونة لها في اتحادها
الحالي عام ١٨٦٧ ، بعد سنتين من إعادة إقامة وحدة الولايات
المتحدة عام ١٨٦٥ من الناحية الفعلية . وقبل أربع سنوات من
تأسيس رايخ (دولة) ألمانيا الثانية عام ١٨٧١ .

« ونحن نجد أيضاً في ظهور عدد من الدول الاتحادية في العالم
الغربي منذ وقت قريب ، وكذلك في تصنيع هذه الدول

وغيرها، برهاناً على أن أحداث التاريخ تتكرر، إذ نرى أن العمل الذي قام به البشر في زمن ماض قد جاءت له أمثلة تكاد تكون معاصرة . إلا أن معاصرة الأمثلة المختلفة لبعضها أمر تقريبي فقط . فالثورة الصناعية التي قامت في بريطانيا ، وكانت حادثة فريدة دون ريب ، قبل أن تقوم في أمريكا والمانيا بما لا يقل عن جيلين ، ثبت أنها ظاهرة متكررة ، والولايات المتحدة التي لم تكن قبل الحرب الأهلية محكمة الترابط قد بقيت سبعة وثمانين سنة ، والاتحاد الألماني الذي كان متداعياً بعد حرب نابليون قد بقي هو أيضاً نصف قرن قبل أن تبرهن الحوادث الحاسمة الخطيرة التي وقعت في العقد السابع من القرن التاسع عشر على أن الوحدة الاتحادية كانت شكلاً متكرراً 'قدّر' له أن يحدث لا في كندا وحدها بل في استراليا أيضاً وجنوب إفريقيا والبرازيل،^(١) ان التغير في الطبقة العليا لا يستوجب حتماً أن يكون ممثلاً للتغير في الداخل . وإن قافلة المدنية التي تقدمت من الكهوف المظلمة إلى العمارات الهائلة ، ومن ركوب الخيل إلى الطائرات في الجو ، ومن حالة العري التام إلى ملابس زاهية ذات أجمل تفصيل ، هذه القافلة المتقدمة تمثل حقيقة جوهرية واحدة فقط : فقد كانت تحدوها في تقدمها رغبة قوية في التحرر وإعادة البناء ، وإن هذا الميل في ذهن الإنسان هو الذي قاد الإنسانية خلال العصور -

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٤ - ٣٥ ، ٣٥ - ٣٦ .

من العصر الحجري إلى العصر الحديث ذي الإنتاج الرأسمالي .

لقد حصل دون ريب تقدم كبير في الفن والأدب وفي العلم والفن الصناعي، ولكن لم يحصل قط أي تغير في طبيعة الإنسان، فإن روح المنافسة التي كانت تجعل القبائل في عصور ما قبل التاريخ تصطرع اصطراعاً رهيباً لا تزال تتغلغل في ذهن الإنسان الحديث وهو مشغول في اختراع أسلحة الدمار لإبادة البشر من فوق سطح هذا العالم . إن قيصر قد قتل منذ زمن بعيد ، ومع ذلك فالنزعة القيصرية لا تزال ترعب الإنسان . وكل من ينظر أدنى نظرة إلى الاتجاهات الحديثة في التاريخ سيسلم بأن الظلم والثورة ، والازدياد المطرد في عدد الذين ينالون تدريجياً مزيداً من الحقوق السياسية في داخل المجتمع وخارجه أمور تتكرر في تاريخ الإنسان حتى هذه الأيام . فالمعلية التي تسيطر على الإنسان الحديث هي نفسها لم تتغير ، وإذا كانت من فرق فهو فرق في السرعة والتكوين .

إن لكل حضارة روحاً خاصة بها تظهر في وجوه المدنية العديدة . وهذه الروح يمكن أن تضعف ، ولكنها لا يمكن أن تموت . إن قانون تناسخ الأرواح يفعل فعله في الحضارات . فالمدنيات تولد ثم لا تلبث بعد حين أن تندثر ، ولكن روح الحضارة تتخذ ثوب أية مدنية أخرى ثم تسيطر على العالم .

وسنبداً في تشريحنا هذه الحركة الدورية للحضارة بدراسة الفنون الجميلة ونظام الحقيقة والأخلاق والقانون .

الفنون الجميلة مرآة بالغة الإحساس من مرايا المجتمع والحضارة
الذين تكون هذه الفنون أجزاء مهمة منها. فكما يَكُونُ المجتمعُ
والحضارة تَكُونُ فنونها الجميلة . ولنعطي صورة أولية موجزة
لنوعي الفنون . النوع الديني ، والنوع المادي الحسي .

فالفن الديني في محتواه ونوعه يقرر الفرضية الكبرى في
« الحضارة الإلهية » وهي أن القيمة الصادقة حقاً هي الله . وهي
تعتبر الإنسان خليفة الله على الأرض ، لذا فهي تؤكد على الجانب
النبيل من الإنسان . إنه فن يعتمد الإعراض عن كل ما هو
خسيس وحقير وقبيح ، والإقبال على كل ما هو شريف وسام
وجميل . بينما لا يمثل الفن المادي الحسي غير الحواس :
إنه يمثل الجانب السفلي من الإنسان إذ هو يمجّد كل شيء دنيء
سافل ، وأبطاله بصورة عامة هم البغايا والمجرمون والمنافقون
والخبيثاء ذوو المكر والحيلة ، وليس لهذا الفن من هدف غير
توفير المتعة الحسية والكسل وإثارة الأعصاب المتعبة ، والتسلية
واللذة والمتعة ، (١) .

لذا فحينما ذهبت الحضارة الحسية تبعتها فنونها الجميلة . وكل
الأمم التي نمت عندها (النظرة المادية) للحياة نمت فنّها بالشكل
نفسه . لذا فقد كان هذا الفن « الشكل السائد من الفن عند
إنسان أوائل العصر الحجري المتوسط في كثير من القبائل البدائية

كقبائل بشمان الإفريقية وقبائل هندية واسكيثية^(١) كثيرة ،
وأشباهها . وقد تغلغلت في الفنون الجميلة للدولة الآشورية ، في
بعض فترات تاريخها في الأقل ، وفنون مصر القديمة في العهود
الأخيرة للمملكة القديمة والمملكة الوسطى والامبراطورية
الجديدة ولا سيما في فتراتنا الأخيرة ، أي عهود سائس^(٢) وعهد
البطالسة^(٣) والعهد الروماني . وقد كانت دون ريب طابع
العهد الأخير المعروف من الحضارة اليونانية من القرن الثالث قبل
الميلاد وحتى القرن الرابع بعد الميلاد ، وأخيراً فقد كان هذا الفن

(١) Scythian وهي قبائل متوحشة كانت تسكن في منطقة البحر الأسود
وجنوب بحيرة قزوين ، وقد تكون ذات صلة بالروس الذين أطلق عليهم العرب
اسم الصقالبة . وقد دخلت هذه القبائل في حروب كثيرة مع الآشوريين
والحيثيين . وكان آخر عهد بهم حروبهم مع الملك آشور بانيبال في حدود سنة
(٦٣٠) قبل الميلاد وفي منطقة كليشيا حيث قضى عليهم .

(٢) سائس Sais مدينة قديمة على دلتا النيل تولت الزعامة في غرب الدلتا
في القرن الثامن قبل الميلاد . أصبحت عاصمة مصر على أيام السلالة السادسة
والعشرين .

(٣) البطالسة جمع بطليموس . وهم حكام مصر من السلالة الاغريقية
المصرية التي حكمت ما بين سنة ٣٢٣ وسنة ٣٠ قبل الميلاد . وأول هذه
السلالة بطليموس الأول الذي عاش ما بين ٣٦٧ ؟ و ٢٨٥ قبل الميلاد . وقد
أصبح ملكاً على مصر بين ٣٢٣ و ٢٨٥ قبل الميلاد ، وهو الذي أسس مكتبة
الاسكندرية . وآخر هذه السلالة الملكة كليوباترا الشهيرة التي عاشت ما بين
سنة ٦٩ و ٣٠ قبل الميلاد . (الترجم)

هو السائد في المجتمع الغربي في القرون الخمسة الأخيرة ، (١) .

أما الفن الإلهي الذي يمكن أن يطلق عليه اسم « الفن المعبر عن فكرة » فكان قد سيطر في بعض الحقب من الزمن على الفن في حضارة الصين التأوية Taoist - China والتبت والحضارة البوذية وحضارة مصر القديمة ، وعلى الفن في حضارة اليونان من القرن التاسع حتى نهاية القرن السادس قبل الميلاد ، وكذلك على الفن في حضارة الغرب المسيحي في أول عهده وفي عصوره الوسطى ، وغير ذلك ، (٢) .

« ومهما اختلفت الفنون الجميلة ، مثلاً ، عند الشعوب البدائية والمتقدمة ، اختلافاً من وجوه كثيرة ، فإنها كلها تعرض للناظر سلسلة من المميزات الداخلية والخارجية المتشابهة حين تكون كلها منتمية إلى نوع واحد . وهذه الحقائق تعني ، في ما تعني ، أن غلبة هذا الشكل أو ذاك في الفنون الجميلة ليس قضية وجود المهارة الفنية أو عدمها ، وإنما للنظرة الخاصة التي يتخذها كل شعب من زمن إلى آخر » ، (٣) .

وهذا هو الحال أيضاً مع نظام الحقيقة والمعرفة ، فأبي نظام للحقيقة والواقع المحسوسين يعني إنكار أية حقيقة أو قيمة تفوق

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .

الطاقة الحسية ، أو النظر إليها نظرة عدم مبالاة تامة . إن الثقافة المادية الحسية ترى البحث في طبيعة الله وفي كل ظاهرة تسمو على الحس ضرباً من الخرافة أو دراسة عقيمة .. فإذا كان لا بد من اتباع الدين فللغايات الدنيوية فقط ، وإذا ما قبِلت فإنما تُقبَلُ كما تُقبَلُ الهوايات الكثيرة . إن نظام الحقيقة هذا يدعو بقوة إلى دراسة العالم المحسوس بخواصه وعلاقاته الفيزيائية والكيميائية والاحيائية ، وقد ركزت فيه كل مطامح الفكر على دراسة هذه الظواهر المحسوسة في ماديتها وما يلحظ من علاقاتها ، والمخترعات الصناعية الفنية التي تهدف إلى خدمة حاجتنا المادية الحسية . فهذه النظرية مادية في كل جوانبها ، وهي تنظر إلى كل شيء بصورة صريحة أو مستورة ، تنظر إليه من نواحيه المادية .. والميزان الوحيد بين الصواب والخطأ والفضيلة والرديلة هو إما المنفعة الحسية أو الملذات الحسية . أما نظام الحقيقة السماوي فيؤمن بالقيم الأخلاقية التي تمثل أهدافاً . وهو نظام مبني على الوحي والإلهام الرباني ، ولذلك فهو موثوق به ومطلق . فالأخلاق ليست أموراً تقتضيها المصلحة الخاصة وُصِّرتْ أموراً منمنمة يقتضيها العقل ، بل إن لها معنى وغرضاً معيناً واضحاً . وهي ليست مقيدة بالوقت والظروف ، وإنما هي شيء أبدي ثابت لا يتغير .

إن دراسة التاريخ دراسة موضوعية ستكشف كيف أن كلا من أنظمة الحقيقة هذه قد مرت عليه أدوار متعددة ساد فيها .

« إن الحقيقة الحسية للحضارة الكريتية الميسينية^(١) قد أفسحت المجال للحقيقة المعبرة عن فكرة لكي تظهر في اليونان بين القرن الثامن والقرن السادس قبل الميلاد . وهذه أيضاً قد أزاحتها الحقيقة الحسية التي جاءت بها الفترة الواقعة بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الرابع بعد الميلاد ، والتي تبعتها الحقيقة المعبرة عن فكرة وهي الحقيقة التي جاءت بها المسيحية ، وذلك في الفترة الواقعة بين القرن السادس ونهاية القرن الثاني عشر . وفي القرن الثالث عشر سادت الحقيقة المعبرة عن فكرة على كل ما سواها ، لكي يتبعها مد^٢ ثالث دامت له السيطرة من القرن السادس عشر حتى يومنا هذا . لذلك فبدلاً من التيسار التقدمي المستقيم المزعوم للحقيقة الحسية في عصور التاريخ كافة ، نشاهد سلسلة من التذبذب من نظام سائد إلى نظام سائد آخر »^(٢) .

إن الحركات الدورية في مجال الفن والأدب ، وفي نظام الحقيقة والعلم والفلسفة والدين ، برهان كافٍ على أنه بالرغم من أن تغيرات عديدة قد حدثت في مدنات العالم وأن المدنات تنشأ وتنتهار ، فإن الحضارة التي هي روح المدنية قد تكررت في

(١) نسبة إلى جزيرة كريت وإلى مدينة ميسينه Mycenae الاغريقية القديمة الواقعة في بيلوبونيس الشمالية الشرقية . والحضارة الميسينية هي التي وجدت في اليونان وكريت وآسيا الصغرى ما بين ١٥٠٠ و ١١٠٠ قبل الميلاد . (المترجم)

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

التاريخ مرات كثيرة ، والمدنيات المتعاقبة التي حلت فيها هذه الروح قد أنتجت نوعاً واحداً من الفلسفة والدين لا غيره في المراحل المختلفة من تاريخ البشرية .

ربما وُجدت بعض أوجه اختلاف لما بين البيئات الطبيعية التي تولد فيها كل مدنية من اختلاف ، ولكن التيار الذي يسيّر المدنية يبقى نفسه . فالمظهر الذي تتخذه الحضارة المادية الحسية مدني حسّي ، سواء كانت الفترة هي القرن الخامس أم القرن العشرين ، وسواء كانت البلاد بلاد العرب أم انكلترا أم أمريكا .

إن صرح المدنية الحديثة الباهر يجعل المرء يستنتج أحياناً أن البشرية لم تكن يوماً ما قط قادرة على أن تحرز هذا التقدم الكبير في مجال الفن والأدب والعلم والفن الصناعي . ولكن سجلات التاريخ حافلة بالشواهد على أنه قد ظهرت في هذا العالم مدنيات كثيرة أكثر روعة في « مظهرها » من المدنية الغربية الموجودة الآن . وقد بدوا لنا أنهم قد وصلوا قمة التقدم المادي والرخاء الاقتصادي ، وأنهم أيضاً حوّلوا أوطانهم إلى أرض بهيجة ذات خيرات عميمة .

هذه المدنية التي تركز على قاعدة مادية بحتة والتي تتخللها منذ البداية روح اللذة الحسية ، قد سيطرت على العالم غير مرة ، وكانت مبادئها الرئيسة دائماً « هذا العالم وحده .. واللا دينية » .

هذه الحضارة الحسية في نسيجها قد قامت بأدوارها مرات

كثيرة في تمثيلية الحياة البشرية . ونحن نرى مما نعرف من التاريخ أن أول من مثّل هذه الحضارة هم « قوم عاد » في جزيرة العرب ، فإن طراز حياتهم يظهر بجلاء أنه كانت توجهه المادة وحدها . وقد أكل التنازع على المصالح قلوب أبنائها وبناتها كلهم تقريباً ، واندفعوا اندفاعاً جنونياً في «حمى التسابق على جمع المال والاستزادة من الملذات . ثم أعقب ذلك انهيارهم ومجيء قوم آخرين على مسرح العالم هم « قوم ثمود » في قوة وحماس جديدين . وكانت آفاق فكرهم مكسوة بلون المادية المظلم ، فلم يكن خيالهم يتسع قليلاً لأن يفكر في أن وراء هذه الحياة حياة أخرى . لذا فقد كان نشاط هؤلاء القوم وعملهم موجّهاً أولاً وآخرًا نحو الحصول على وسائل الراحة الدنيوية .

وقد أحرز الرومان في هذا المجال تقدماً كبيراً ، فقد طغت على حياتهم الفلسفة المادية الحسية للحياة ، والأخلاق الحسية والسلوك الحسي والتقاليد الحسية . وقد سمح النظام الاقتصادي الجائر جداً ، الذي كان سائداً في ذلك العصر ، بأن يقوم ترف القليلة وثراؤها على فقر الكثرة وشقاءها . وكانت أية محاولة لتغيير هذا النظام والتخفيف من عدم المساواة والجور الذي فيه ، تُقابل بالقمع . وكان الاحتقار نصيب كل عبادة في القانون الديني المتعلق بالأخلاق .

كان الدين يأمر الناس بالفضيلة والرحمة والصدقة والعطف ،

ولكنهم كانوا يجدون متعة في ما يأتونه من قسوة ، وكانوا يجدون
كبرياءهم و يقيمون استعراضاً لأعمالهم الوحشية !..

وبعد مرور الزمن ، انهارَ صرحُ المدنية الزاهر هذا كما ينهار
بيت من الورق ، وقد أقامت المدنية الحديثة بنيانها على أنقاضه .
وفي كلتا المدينتين نجد أن شهوة السلطان والثروة هي نفسها .

« إن الأوروبي السويّ - سواء كان ديمقراطياً أو فاشياً ،
رأسمالياً أو بلشفياً ، عاملاً يدوياً أو مفكراً - يَعْلَمُ ديناً
إيجابياً واحداً هو عبادة التقدم المادي ، والاعتقاد بأنه ما من
هدف في الحياة سوى جعل هذه الحياة تزداد سهولة ويسراً ، أو
- بالتعبير الشائع - (تكون مستقلة عن الطبيعة) » .

أما معابد هذا الدين فهي المعامل الضخمة ، ودور الصور
المتحركة ، والمختبرات الكيميائية ، وقاعات الرقص والمعامل
الكهربائية . وأما قُسُسُها فهم أصحاب المصارف والمهندسون
ونجوم السينما ومديرو الصناعات وأبطال الجو .

إن النتيجة الحتمية لهذا الاندفاع الأهوج وراء السلطان
والملاذات ، إنما هي إيجاد جماعات متعادية متسلحة بكل سلاح
ومصممة على أن يسحق بعضها بعضاً ، متى ما تصادمت مصالح
أي منها بمصالح الآخرين وحيثما تصادمت . وكانت النتيجة - من
الناحية الحضارية - أن أوجد نوع من البشر تقتصر الأخلاق
عندهم على مسألة النفعية العملية وحدها ، وأسمى ميزان لديهم

يفرقون به بين الخير والشرّ هو (النجاح المادي) (١) . وقد أدّى ذلك إلى أن صار تقدّم المعرفة الإنسانية مصيبة على الإنسانية المريضة ، بدلاً من أن يمنحها الراحة . فالقوى التي وضعها العلم بيد الإنسان الحديث تجعل الاستجابة لها دائماً تهديداً لكل مقومات المدنية .

فروح القومية لا تغرس الحب بين الأفراد والتعاون بين الأمم ، بل هي موجّهة نحو زيادة العظمة والعزة القومية ورفع المكانة القومية . والذي يؤسف أن تصوّر الأمة لنفسها أنها قانون مقدس ، وأنه يجب ألاّ يسمح لشيء ما أن يتعرض لسياساتها بالإصلاح . فالحق هو ما يؤدي إلى منفعتها ، والفضيلة ما يعود عليها عمله بالنفع . وكما كانت الرئيس الأمريكي روزفلت مُصيّباً حين قال : « إن الشعوب والأمم البريئة يُضَحَّى بها الآن بقسوة إشباعاً لمطامع السلطان والسيادة الخالية من كل معنى من معاني العدالة والرحمة الإنسانية » .

فالملاذات الحسية ووسائل الراحة الدنيوية وحدها تحكم عقل

(١) Muhammad Asad, Islam at the Crossroads, p. 56.

وقد تجد نصاً مشابهاً في ص ٤٥ - ٤٦ من الطبعة الرابعة من الترجمة العربية للدكتور عمر فروخ ، التي نشرتها في بيروت - دار العلم للملايين - عام ١٩٥٥ ، بعنوان « الإسلام على مفترق الطرق » ، تأليف محمد أسد .

(المترجم)

الإنسان الحديث ، وهو من أجل الحصول على الملذات ووسائل الراحة هذه لا يعرف قانوناً ولا عدلاً ولا فضيلة .

هذه هي روح الحضارة التي تشرّبت بها مدنيات مختلفة وأنتجت شبيهاً بينها من حيث التكوين . فقَوِّمُوا « عاد وثمود » وشعوب الرومان واليونان والأوروبيون والأمريكيون في أيامنا هذه ، قد اتفقوا في الأمور الجوهرية من الحضارة إن لم نقل في تفصيلها . فهم جميعاً ينظرون إلى الحياة من زاوية واحدة بعينها ألا وهي زاوية المصلحة المادية .

ولنتقل الآن لحظة إلى بعض المشكلات الأساسية التي تتعلق بالحياة الإنسانية ، لنرى كيف كانت هذه المشكلات تبرز مرة بعد أخرى لتحتل مكان الصدارة بين المشكلات كلها ، وكيف كان يعالجها الأفراد المختلفون الذين يمثلون حضارة واحدة ، معالجة متماثلة في الروح والأسلوب . نخذ مثلاً لذلك العلاقة بين الفرد والمجتمع وراقب حركاتها الدورية .

لا جدال في أنه لم يكن في العصور البدائية كيان سياسي منظم ، ولكن ذلك لا يعني أنه لم يكن حينذاك كيان على الإطلاق ، وأن الفوضى كانت وحدها تسيطر على المجتمع . فشكل النظام الاجتماعي الذي كان سائداً آنذاك يمكن أن يكون بدائياً ولكن لا يمكن أن يُنكر أنه كان موجوداً ، وأن الأفراد كانوا يعيشون وفق مبادئ معينة وضعها ذلك النظام ، وفي هذا النظام كان الفرد يتمتع بحرية غير مقيّدة ، وأن النسيج الاجتماعي كان

أضعف من أن يقاوم قوة إرادة الفرد . هذه المرحلة من مراحل سيطرة الفرد على المجتمع ، تطوّرت بعد مدة إلى ملكية أصبح فيها الفرد عبداً ذليلاً لمستبد يمثل الدولة كلها في شخصه وحده . وهكذا بُدِئَ بتضحية حياة أفراد الرعيّة وأملأهم بحريّة تامة في سبيل الدولة .

وسارت الأيام ، وظنّ أكثرنا أن هذه المشكلات لن تعود ، ولكن حوادث التاريخ التي قلّست أثبتت آخر الأمر أن الحال غير ذلك ، بل لقد لاحظنا في هذا القرن رقاص حقوق الفرد على الدولة يتأرجح من جهة إلى جهة . فالمبادئ الجوهريّة للديمقراطية الحديثة تعطي الفرد حرية لا حدود لها في التمتع بالحقوق .

فقد كتب (جون ستيوارت مل John Stuart Mill) عن الحرية قولاً ذا شأن ، إذ قال : « لا بدّ للبشر أن يراعوا في سلوكهم بعضهم مع بعض قواعد عامة في أكثر النواحي ، لكي يعرف الناس ما يجب أن يتوقعوه . ولكن الفرد حرّ في أن يأتي من أعماله الشخصية ذات البواعث الداخليّة الخاصّة ما يشاء ، ويمكن أن يقدم له الآخرون آراء تساعد في الوصول إلى حكم صحيح ومواعظ تقوي إرادته ، بل قد تفرض عليه دون أن يطلبها ، ولكنه هو نفسه الحَكَمُ الفصل في الموضوع ، وكل الأخطاء التي يُحتمل أن يقوم بها — رغم النصيح والتحذير — أقلّ بكثير من الشرّ الذي يأتي به السماح للآخرين بإكراهه على القيام بما يعتقدون فيه الخير له . »

وكانت عاقبة هذه الحرية غير المحدودة التي يتمتع بها الفرد في النظام الديمقراطي وخيمية . فهو حر في أن يدوس حقوق إخوانه الضعفاء ، وهو حر في أن يستغل موارد البلاد لفائدته الشخصية ، وليست الدولة غير عبد رقيق للأفراد .

وبعد هذه التجربة المؤسفة في مجال الديمقراطية ، ظهر مرة أخرى رد فعل . فقد تجلّى بعد وقت قصير أن شعار « كل فرد يعمل لمصلحة نفسه » لا يصلح قاعدة لمجتمع طيب راضٍ ، وأن الشقاء الذي أحدثه تطبيقه عملياً أدّى إلى سياسة تدخل الدولة لا في الأعمال الصناعية والاقتصادية وحدها ، وإنما في كل شأب الحياة الإنسانية . فالفاشية والشيوعية تحكمان العالم الآن ، وفي ظل هذين النظامين سلت سلطات لا حدود لها بيد الحكومة التي يسيطرها شخص واحد أو بضعة أفراد قلائل .

إن على الدولة القومية أن تعمل بلا كلل ، لأجل أن تجعل كل الحكومة — لا سيما رأسها ، أي القيادة السياسية — غير مقيّدة بمبدأ سيطرة الأغلبية (أي الجمهور) لكي تضمن الحكم المطلق للفرد (أي الزعيم القوي) بدلاً منها . يجب أن لا تكون هنالك أغلبية تضع القرارات ، وإنما جماعة من المسؤولين فقط ، وتعود كلمة (مجلس Council) إلى معناها القديم ^(١) .

(١) المعنى القديم : هو جماعة مجتمعة من الناس لا أكثر ولا أقل . بخلاف المعنى الحديث الذي معناه تحمل مسؤولية التشريع كما في مجلس الأمة . (المترجم)

ويكون لكل رجل مستشارون بجانبه ، ولكن القرار يتخذه
(رجل واحد) . فما يقرره هتلر صحيح ، وسيدقى صحيحاً
مدى الدهر كما صرح (الهر فريك Herr Frick) وزير داخلية
المانيا مرة : « إن أدت فرض هتلر عليك فقد أدت فرض
المانيا عليك ، وإن أدت فرض ألمانيا عليك فقد أدت فرض الله
عليك » . أما الشيوعية فقد تقدمت الدولة فيها خطوة أخرى
في السيطرة على مصائر الناس . فهي جماعية من أولها إلى آخرها
إذ أن الأفراد فيها إنما يوجدون في الأساس من أجل الدولة . سم
رئيسها بأي اسم ، ولكن سلطاته ليست بحال ما أقل من سلطات
هتلر أو موسوليني . إنه يزعم لنفسه الكلمة النافذة في كل ما
يجول بخياله ، وذلك الخيال يتغبط من جهة طرف الجمهوريات
السوفياتية إلى الطرف الآخر . وإن هتلر وستالين وجهان لنفس
الشخصية السياسية ، والفاشية والشيوعية جانبان لمبدأ التنظيم
السياسي نفسه . فإذا كان نابليون بونابرت قد عاش في التاريخ بما
كانت تنسجه الشرطة من مؤامرات ، وإذا كان ملوك المسلمين
في العصور الوسطى قد حكموا في ظلال الحراب ، فإن ستالين
أيضاً يستطيع دون ريب أن يستخدم شرطة الأمن السرية التي
استخدمها لإيقاع ضحاياه في مهاوٍ سوداء من اليأس .

إن مثلاً عن العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى سيوضح
مقصدي إلى حد بعيد جداً .

كانت هذه العلاقة في أشد عصور التاريخ الإنساني بداءة

تشبه علاقة الحيوانات شبيهاً تاماً . كان كل امرئ يتمتع بالحرية الكاملة في إشباع نهمه الجنسي من الفرد ذي الجنس الآخر. ومرت الأزمان فظهر نظام الأسرة في المجتمع ، ونشأ معه نظام الزواج الذي فرض قيوداً كثيرة على (الحرية) التي كانت موجودة . ثم ازدادت الأسرة مع الأيام قوة ، ولكنها أصيبت بعد مدة بنكسة خطيرة وكان هذا أيضاً على يد فيلسوف لا يقل في وزنه عن أفلاطون الذي اقترح أن يجمع كل الأصحاء من الرجال والنساء في مكان ما في وقت واحد ويسمح لهم بالاتصال الجنسي . وكان يعتقد أنه بهذه الطريقة سوف لن يقصر الأطفال حبهم على رجل أو امرأة معينين ، بل سيقربون بالجيل كله وبالدولة برباط الحب ارتباطاً أبدياً . ولم يمض زمن طويل حتى ظهرت للناس النتائج القتالة لهذا العمل السخيف فحاولوا أن يقوّوا نظامي الزواج والعائلة .

وقد كانت السنوات الثلاثون الأخيرة ملأى بالحوادث في هذه الناحية « ففي السنين العشرة الأولى من الإدارة البلشفية كان الفهم السائد عن الاتصال الجنسي أنه مسألة " شخصية " ، تحدث بموافقة الرجل والمرأة سواء اتفقا أو اختلفا في العنصر أو اللون أو الدين ، وهو عمل لا يحتاج إلى القيام بشعائر دينية أو غير دينية ، وحق التسجيل الرسمي لهذا الاقتران أمر اختياري تماماً .

وفي السنين العشرة التالية نلاحظ تغييراً تدريجياً في النظر إلى هذا الموضوع . إذ لم يرض لنين قط بالتحلل الذي كان طابع

السنين الأولى التي تلت الثورة. فقد كان يعاف الفكرة التي أُلقيت إلى الناس في الأيام الأولى من الثورة والتي تقول لهم إن الاتصال الجنسي عمل طبيعي تماماً كالأكل ، وليس فيه شيء يذتقد أكثر مما في تناول قدح من الماء عند العطش. وبصورة تدريجية أصبحت نظراته إلى الالتزامات الاجتماعية التي تنشأ عن الاتصال الجنسي هي النظرة المعتمدة لدى الحزب الشيوعي .

ولقد كتب ريزانوف Ryazanov ما يلي : « هل الزواج علاقة خاصة بين حيوانين يشيان على رجلين وأمرٌ يخصهما وحدهما ، ولا يحق للمجتمع أن يتدخل فيه ؟ إننا يجب أن نعلم شباب الشيوعيين أن الزواج ليس عملاً شخصياً بل عملاً ذا أهمية اجتماعية عميقة » . وقال سولتز Soltz : « إن للزواج جانبين ، الجانب الخاص والجانب الاجتماعي ، ويجب أن لا ننسى قط الجانب الاجتماعي . إننا لا نريد أن تكون الحياة خلية أو فاسدة لا نظام فيها ، لأن ذلك يؤثر على الأطفال » ^(١) . وهكذا تعود العائلة ونظام الزواج ليسودا في المجتمع مرة أخرى .

والتاريخ يخبرنا أنه حق الديمقراطية ونظام الحكم النيابي الذي يبدو لنا أنه نتاج العصر الحديث ، تكن نواته في أعماق عصور ما قبل التاريخ .

Sidney & Beatrice Webb's Soviet Communism : A New
Civilization, P. 849

(١)

إن دوران الحضارات هذا مع المشكلات التي ترتبط بها يقرر آخر الأمر أنه بالرغم من أن المدينيات قد ولدت وماتت ، فإن الحضارات لم يطرأ عليها تغيير مهم . قد يحصل تحول في الميدان الذي تسيطر فيه ، ولكن الروح التي تتجلى في كل الميادين والمجالات هي روحها نفسها ، فإن عملية حلول الروح تعمل عملها في الحضارة . إن في وسع أية جماعة من الناس في أي دور كانوا أن يتجهوا أي اتجاه فكري .. سواء كان اتجاه النفعية أو غيره ، ويستطيعون أن يصوغوا حياتهم تبعاً له . وبما أن طبيعة البشر لا تزال نفسها لم تتغير ، على قلب الزمن ، لذا فمشكلاتها هي المشكلات القديمة نفسها ، ومهما حصل من تغير فهو في العالم المادي فقط . إن ظاهرة توالي الليل بعد النهار والنهار بعد الليل .. هذه الظاهرة المألوفة لا تقتصر ملاحظتها على الكرة الأرضية ، بل هي نفسها موجودة ، ويمكن ملاحظتها حتى في الحضارات والمدينيات . فكما أن أقساماً من العالم يغطيها ظلام الليل ، كذلك في هذا العالم بلدان وأمم تغطيها أجنحة الحضارة الحسية الخفيفة . وكما يأتي فجر الصباح بعد الليل ، كذلك يأتي بعد ذلك فجر الحضارة المعبرة عن فكرة . إلا أن اختلافاً مهماً واحداً يجب أن لا يفوتنا ذلك أنه مهما يحدث في العالم المادي فإنه يظل مطيعاً لقانون الطبيعة الثابت الذي لا فكاك له منه . فالطبيعة تسير في طريقها سيراً آلياً ، أما أعمال الإنسان فليست كذلك . إنه قد أعطي حرية في الإرادة ، فهو يستطيع أن يختار وينتخب ويقبل أو

يرفض وفقاً لما يرغب فيه . لذا فإذا ازدهرت الحضارات أو سقطت ، فذلك كله لالتزام أتباعها بها أو تخليهم عنها . ولا يمكن تعيين لحظة معينة نقول أنها كانت نقطة تقدمها أو انحلالها . إذ أن الجهد الأخلاقي الذي يبذله الناس هو الذي يقرر تقدمها . والنجاح إنما تصيبه تلك الفئة من الناس التي تتمثل فيها الفضيلة والعدالة بأكبر نسبة ، ولكن الفضيلة والعدالة هاتين لا يمكن الحصول عليهما إلا بجهد واع يتطوع ببذله الأفراد الذين يكونون فئة اجتماعية .

إنه لمن سوء حظ البشرية أن أصبح الإنسان « بالتمريف العلمي المادي » مجرد مركب معقد من الكهيرات والبروتونات ، أو مخلوقاً حيوانياً ، أو جهازاً ذا انعكاسات أو مجموعة متنوعة من العلاقات بين الخوافز والاستجابات ، أو جمعية تحليل نفسي مملوءة بالدوافع النفسية . ووفقاً لهذا اعتبرت أعضاء الحس الجاسية الناقصة الحكم الفصل بين ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي ، وبهذا انحط الإنسان إلى مجرد آلة ذات أعضاء حية . ومن هنا استنتجوا أن حياة الإنسان أيضاً يحكمها قانون الولادة والموت نفسه الذي يحكم حياة الحيوان . ونتيجة لذلك فإن ما كان قديماً لا يمكن أن يحتفظ بالقوة نفسها التي كانت له في عنفوانه ، وأنه لا مندوحة لما كان متجهاً نحو الهبوط والانحلال والاقتراب من النهاية من أن تقل قوته ويموت آخر الأمر .

إن هذه النظريات جميعاً لا تقوم على أساس لأنها مبنية على

التشبيه بتركيب الكائنات الحية . إذ أن الإنسان ليس حيواناً مجرداً ، وإنما هو أكثر من ذلك بكثير ، إذ أن لديه الإرادة التي تدفعه إلى العمل ، وله الضمير الذي يرشده . لذا فلا يوجد قانون موحد يستلزم أن تمر كل حضارة وكل مجتمع بمراحل الطفولة والنضج والهرم والموت نفسها . « فضلاً عن ذلك فما من أحد من أنصار هذه النظريات القديمة جداً قد بيّن ما المقصود بطفولة المجتمع وهرم الحضارة ، وما خواص كل من هذين الطورين من أطوار العمر ، ومتى ينتهي أحدهما ويبدأ الذي يليه ، وما الذي يميت مجتمعاً ما وكيف يموت ، وماذا يعني موت المجتمع أو الحضارة . إن هذه النظريات متشابهة تماماً في كل هذه الأمور ، وهي مكوّنة من مصطلحات مبهمّة لوحدّة لا وجود لها ودعاوى لم يقدّم عليها دليل » (١) . فكما أن إبدال المرء بطراز معيشته طراز آخر لا يعني أنه مات ، كذلك إبدال شكل جوهري من أشكال الحضارة واتخاذ شكل آخر مكانه لا يعني موت المجتمع والحضارة اللذين أصابهما هذا التغيير . إن الخطأ الأساسي الذي وقع فيه هذا العالم النحرير وأخذ يتخبط فيه هو أنه نظر إلى الحضارة نظره إلى آلة عضوية من نوع خاص ليس لها اتصال في أية نقطة بالحضارات التي سبقتها أو تلتها تاريخياً . إلا أن الحقيقة أبعد من ذلك بكثير . إن الحضارة ليست آلة عضوية ، وإنما هي

(١) P. A. Sorokin ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .

حركة . وفي سجلات التاريخ شواهد وفيرة على أنه حتى حين
يثقل المجرى الصافي لحضارة ما ، فإنه نادراً ما يحف ، بل يبقى
يؤثر في أفكار الناس الذين يمثلون حضارة جديدة وسلوكهم .
ولنقرأ شيئاً من كتاب (بريفو Briffault) المسمى (بناء الإنسانية
: Making of Humanity

« إن العلم هو أعظم ما قدمته المدنية الغربية للعالم الحديث ،
ولكن ثماره كانت بطيئة النضج . فلم يقم العملاق الذي ولدته
الحضارة الغربية إلا بعد زمن طويل من زوال الحضارة البربرية
(المغربية) وارتكاسها في الظلمات . وقد كان للمدنية الإسلامية
مؤثرات أخرى عديدة أوقدت الشعلة الأولى في الحياة الأوروبية
إذ بالرغم من أننا لا نجد ناحية واحدة من نواحي رقي أوروبا
تخلو من التأثير الحاسم للحضارة الإسلامية ، فإن هذا التأثير
ليس في أي مجال أظهر وأهم من نشوء القوة الدائمة التي تميز العالم
الحديث والتي هي أعظم مصدر للانتصارات المتتالية التي
يحرزها ، ألا وهي العلوم الطبيعية والروح العلمية .

« إن ما نسميه علماً قد نشأ في أوروبا عن روح التبعية
الجديدة ، وأساليب البحث المستحدثة ، وأسلوب التجربة
والملاحظة والقياس ، وعن تطوير علم الرياضيات إلى شكل لم
يكن للاغريقين به علم . هذه الروح وتلك الأساليب كان الذين
جاءوا بها إلى العالم الأوروبي هم العرب . »

لم يكن هذا التغير المفاجيء المذهل في الفكر العالمي من غير

سبب كاف. لقد كان مبعثه مؤثرات مستمرة للحضارة الاسلامية كانت تعمل عملها في الآخرين. كان الإسلام حين بدأ عصر النهضة في اوربا قد استنفد قوته، من الناحية السياسية على الأقل، ولكن كان لا يزال فيه من القوة ما يكفي لكي يصوّر شكل التفكير. فلقد ساعدت نظرة القرآن إلى الحياة أبناء هذا العالم - مسلمين وغير مسلمين - على خلع رداء الخمول الفكري. إن تأكيد القرآن على النظر إلى آية الحقيقة الكبرى في (الشمس) و (القمر) وامتداد الظل، وتوالي الليل والنهار، واختلاف السنة الناس وألوانهم وتعاقب اليسر والعسر بين الناس، جعل للمسلمين نظرة جديدة تماماً إلى العالم، فأخذوا يعتقدون أنه كان متحركاً في نشأته وأنه عالم محدود وقابل للتوسع.

هذه النظرة إلى الحياة أوجدت عدم اقتناع بالفلسفة التي تعتمد على التأمل وحده. فحيثما ذهب المسلمون حملوا معهم هذه الأفكار. فاتخاذ « الشك » أساساً للمعرفة - هذا المبدأ الذي وضعه النظام، وتوسع فيه الغزالي - أثر تأثيراً كبيراً في أسلوب (ديكارت Descarte) وأفكار (روجر بيكن Roger Bacon) في العلم، التي هي أوضح من آراء سميّة المشهور (فرانسيس بيكن Francis Bacon)، كانت قد تعلمها في الجامعات الاسلامية في الأندلس. والواقع أن الفصل الخامس من كتابه Opus Majus الذي يبحث في علم البصريات، هو في الحقيقة نسخة من كتاب (المناظر) لابن الهيثم. وكذلك ليس

هذا الكتاب ككل محتاجاً إلى دليل على تأثير مؤلفه بـ (ابن حزم) (١) .

ولم تجرؤ فلسفة غير الفلسفة الإسلامية على أن ترفع رأسها ، أيام كان المسلمون مهيمنين على العالم فكرياً وخلقياً وسياسياً . ولكن حين توقف أتباع محمد ﷺ عن إمداد نظامهم الفكري بغذاء جديد من البحث ، بدأت تترنح شجرة المعرفة السامقة هذه التي امتدت أوراقها إلى كل بقاع العالم وحملت أغصانها ثماراً ذهبية من الفن والعلم والأدب ، وتمزقت بالعواصف ولكنها لم تمت وظلّت تؤثر في سير التاريخ .

ولقد كان من فضل تأثير الإسلام الطيب أن ترك عبادة الأصنام بحق الذين تزعموا الدفاع عنها بحماس وقوة . وظهر بين المسيحيين مصلحون كثيرون .. واحداً بعد الآخر .. سخروا من سلطة الكنيسة وأظهروا عدم إيمانهم بالثالوث . وانحدرت موجة الحضارة الإسلامية هذه تجرف بقوة لا تقاوم ، والعالم لا يستطيع أن يوقف مدّها بكل ما بذل من المحاولات الهادمة .

إن الحركات الإصلاحية في عصرنا هذا قد تبدو في مائة مظهر ومظهر من مظاهر التجديد ، لكن الذين أوتوا بصيرة نافذة يستطيعون أن يروا تيار الإسلام يساب تحتها .

(١) Muhammad Iqbal ، المصدر السابق ، ص ١٢٩ . وتجده نصاً مشابهاً في ص ١٤٨ من الطبعة العربية المشار إليها آنفاً . (المترجم)

وَمَن كَانَ يَهْمُهُ أَن يَطَّلَعَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ فَلْيَرْجِعْ إِلَى كِتَابِ (المَدِينَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ Islamic Civilization) تَأْلِيفِ (خُدَا بَكْس Khuda Bux) ، وَكِتَابِ (تَرَاثُ الْإِسْلَامِ Legacy of Islam) تَأْلِيفِ (توماس آرنولد Thomas Arnold) ، وَ(الْحَضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ Muslim Culture) تَأْلِيفِ (في في بارت هول V. V. Barthold) ، وَ(أَثَرُ الْإِسْلَامِ فِي الْحَضَارَةِ الْهِنْدِيَّةِ Influence of Islam in Indian Culture) تَأْلِيفِ (دكتور تارا چاند Dr. Tara Ghand) فَإِنَّهَا سَتُعْطِيهِ فِكْرَةً عَامَةً عَنْ تَأْثِيرِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَدِينَةِ الْحَدِيثَةِ .

وَفِي هَذَا الصَّدَدِ يَجْدُرُ بِنَا أَن نَتَذَكَّرَ أَن غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ هُمُ وَحْدَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَتَشَرَّبُوا بِرُوحِ الْإِسْلَامِ ، إِذْ أَنَّهُ حَقُّ الْمُسْلِمُونَ قَدْ تَعَلَّمُوا شَيْئًا كَثِيرًا مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ . إِلَّا أَنَّ طَرِيقَةَ الْأَخْذِ كَانَتْ تَخْتَلِفُ مِنْ زَمَنٍ إِلَى زَمَنٍ وَمِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ . وَمَا دَامَ « الدِّينُ السَّمَاوِيُّ » الَّذِي هُوَ كُلُّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْوُجُودِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَغَايَةُ مَا يَطْمَحُونَ إِلَيْهِ ، وَمَا دَامُوا يَقُومُونَ بِجُحُودٍ مَرَكَّزَةٍ صَادِقَةٍ لِنَشْرِهِ .. وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى .. مَا دَامَ هَذَا الدِّينُ بَاقِيًا قُوَّةً مُحَرِّكَةً وَفِيهِ قُوَّةُ الْحَيَاةِ وَحِمَاسُهَا ، فَلِمَ يَسْتَطِيعُ أَن يَصُبَّ أَفْكَارُ الْآخَرِينَ فِي الْقَالِبِ الَّذِي يَلَائِمُ شَكْلَ تَفْكِيرِهِ .

لَقَدْ كَتَبَ مُسْتَشْرِقُ أَوْرُوبِي قَوْلًا قَيِّمًا ، هُوَ : « إِنْ رُوحُ الْإِسْلَامِ وَاسِعَةٌ جَدًّا حَقٌّ أَنَّكَ لَا تَكَادُ تَعْرِفُ لَهَا حُدُودًا . فَإِذَا اسْتَشْنَيْنَا الْأَفْكَارَ الْإِلْهَادِيَّةَ وَجَدْنَا رُوحَ الْإِسْلَامِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ كُلَّ

الأفكار التي كانت موجودة عند الشعوب المحيطة بها ووجهتهم
وجهتها الخاصة في التطور والنمو .

وروح الاسلام الاستيعابية أظهر من ذلك في مجال القانون .
يقول البروفيسور (هيرغرونجه Hurgronje) الناقد الهولندي
للاسلام : « عندما نقرأ تاريخ تطور الشريعة الاسلامية نجد علماء
كل عصر يتهم بعضهم بعضاً لأتفه الأسباب ، حتى ليصل الأمر
بهم إلى أن يكفّر بعضهم بعضاً ، ونراهم في الوقت نفسه - وهم
يحسّون بوحدة هدف لا تفتأ تزداد قوة - يحاولون أن ينهوا ما
كان بين أسلافهم من خلاف يشبه الخلاف الذي بينهم هم
أنفسهم » (١) .

ولم تستطع هذه الحال أن تبقى زمناً طويلاً . فحين غفل
المسلمون عن رسالتهم في الحياة ، وخمدت في أرواحهم النار
المتأججة ، أو قل ، حين جرفت الحياة المادية بضجيجها وعجيجها
جموع المسلمين ، وتحوّلت أنظارهم عن وجهتهم بفعل ضغط
المطالب العاجلة ، نسوا العناية السامية ، ففسحوا المجال لحلول
عهد انحلال المسلمين وفلسفتهم ، وازداد ركود العالم الاسلامي
وضعت أفكارهم ولكنها لم تقبر قط .

لقد منح الله كل أمة عقلية مبدعة تعتمد حياتها عليها ، فحين

(١) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ . وتجسد نصاً مشابهاً في ص ١٨٩ من
الترجمة العربية للكتاب . (المترجم)

تضعف هذه العقلية تنهار الأمة ، ثم يموت أفرادها بعد عدد من السنين ، ولكن أفكارهم تبقى مخفية في هذا العالم كجذوة النار التي لم تنطفئ بعد ، والتي يمكن إذا سحر كُتِّ الهواء فوقها أن تجعلها ناراً متوهجة .

إن كل حضارة تولد من بطن الماضي ، وتنمو في أحضان الحاضر . فالعالم لم يشهد قط ظهور حضارة ما فجأة ، من غير أن يكون لها علاقة بالماضي . إن هذا لا يمكن أن يحدث إلا حين يخلق مع مولد كل حضارة جديدة رجال جُدد لهم صفات جديدة في العقل والقلب ولهم كذلك غرائز جديدة . وهذا شيء لم يحدث في الماضي ولا يمكن أن يحدث قط في المستقبل . فإنسان هذا العصر مخلوق من المادة التي تُخلق منها الانسان الذي كان في عصور ما قبل التاريخ نفسها ، وطبيعته لم يحصل فيها تغير جوهري .

ولقد أوضح الدكتور محمد إقبال هذه النقطة بقوله : « يجب أن لا ننسى أن الحياة ليست كلها تغيراً بصورة مجردة وبسيطة ، فإن فيها أيضاً عناصر المحافظة والصيانة . وإن الانسان وهو يبدع ما يبدع ويوجه دائماً طاقاته نحو اكتشاف آفاق جديدة للحياة ، يشعر بالقلق أمام ما يكتشفه . وهو في أثناء تقدمه لا يتألم نفسه من أن يلتفت إلى الماضي ويواجه ما حصل له من اتساع داخلي في نفسه بشيء من الخوف . إن روح الانسان الداخلية تكون في أثناء تقدمها مقيّدة بقوى تبدو كأنها تعمل

في الاتجاه المعاكس . وليس هذا سوى طريقة أخرى للقول بأن الحياة تسير وثقل ماضيها على ظهرها ، وأنه عند النظر في أي تغير اجتماعي لا يمكن الإغضاء عن قيمة قوى المحافظة وعملها ،^(١) .

إن الأخلاق الانسانية مبنية على القيم الخارجية للحياة ، وهي القيم التي ظلت دائماً نفسها على تقلب الزمن . وهذه نجدها في طبيعة الانسان نفسها .

من ذلك كله نستنتج أن كل موجة حضارية تسير سيراً متصللاً مع الزمن . ولكن ما من شك في أن التيار يضعف حين لا يأتيه إمداد على شكل تيار فكري جديد . أما إذا كانت الأفكار الجديدة تتدفق فيه دائماً بقوة فتزيده شدة فإنه يستطيع أن يدوم زمناً لا نهاية له .

والخطأ الكبير الآخر الذي وقع فيه (شبنكلر Spengler) هو أنه ، مثل هيجل وماركس ، رأى للمجتمع نوعاً من التنظيم وبنى على هذه النظرية قوانين ازدهار الحضارات وسقوطها . إن أكبر أسباب هذا الخطأ هو الخطوات الهائلة التي خطاها العلم المادي في العالم . فلقد كان من أثر التقدم المادي أن صار حتى عامة الناس يعتقدون أنه ليس وراء (المادة) شيء ، وأن

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٦-١٦٧ ، وتجد نصاً مشابهاً في ص ١٩١ من الترجمة العربية للكتاب . (المترجم)

(الوعي) و (الإرادة) كليهما شكلان متطوران من المادة .
فأصبح الانسان بمقتضى هذه التعريفات العلمية المادية « مجرد
مركب معقد من الكهيزات والبروتونات على شكل مخلوق
حيواني » .

إن هذه النظرات عن الحياة الانسانية قد تجاهلت تماماً
جانبها الانساني . لقد تصور مفكرو العصر الحديث ، ومنهم
(شبنكلر) ، وهم في غمرة الهوس الذي استولى عليهم في سعيهم
وراء المعرفة العصرية ، أن المجتمع مجرد جهاز عضوي حي ،
وهو كائن يشبه في تركيبه وعمله ووحدة جهاز الانسان ،
ولذلك فهو « معرّض » لقوانين مشابهة تحكم نموها ونضجها
وتدهورها . ولكن أفراد بني الانسان ليسوا ، كما بينت آنفاً ،
بمجرد حطام طاف على محيط الضرورة ، يصعد وينزل مع مد
الظ. وف وجزرها الحتميين ، ويندفع هنسا وهناك مع تيارات
الزمن .

لقد منح الانسان الارادة الواعية والقدرة على الاختيار ،
فهو يستطيع أن يستغل البيئات لمصلحته الشخصية . لذا
فالقوانين التي تسيطر على الانسان — الذي قد أعطيت له حرية
الإرادة — يجب أن تكون مختلفة تماماً عن القوانين التي تتعلق
بحوانب الحياة العضوية منه .

« إن المادة تسيطر عليها وتسيّرهما قوانين رياضية وآلية ،
وحياة النبات تسيّرهما قوانين النمو ، وحياة الحيوان تسيّرهما

الغريزة . أما حين يأتي الانسان إلى المسرح ويبرز العقل ، فإننا نلاحظ انتقالاً من الغريزة إلى الفكر . ومع الفكر يأتي امتياز الانسان وامتداده وهما الأمران العجيبان جداً اللذان يسميان الإرادة الحرة^(١) . لذا فيجب أن يحكم مصير البشر قانون آخر يختلف عن هذا القانون . والتاريخ مشحون بالأمثلة التي تدل على أن قوة الإرادة في الأفراد قد غيّرت مجرى التاريخ، وأن جهود البشر لم تقف عند النجاح في الأخذ بيد الحضارات العائرة وإنقاذها من كبوتها ، وإنما تجاوزت ذلك إلى تقويتها بنفخ حياة جديدة فيها .

على أن الجانب الثاني من المشكلة أكثر خطراً . فإن اعتبار المجتمع والكائن العضوي وبني البشر مجرد خلايا قد أدّى إلى نتائج مريعة . فقد ألغى هيجل وماركس شخصية الفرد وأبعداها وراء المجتمع في مكان غامض ، وبذلك نفيا استقلال كيانه الفردي تماماً . وكذلك شبنكلر ، حين أقرّ بسيادة الحتمية في القانون الاجتماعي ، بنشر روح التشاؤم في العالم ، بل وقصّ أجنحة الطموح الانساني أيضاً . إذ حين يكون على الأمم أن تمر بمراحل النمو والنضج والانحلال والموت كما يمر الأفراد ، فإن جهود الانسان مهما كان وراءها من عزيمة ، يجب أن تتفق مع تلك القاعدة الجوهرية ، وإلا حكم عليها بالاختفاق . غير أن أي تحليل

دقيق سيظهر لنا أنه محاولة إقناع مغلفة بالخداع تغليفاً واضحاً، ولا شيء غير ذلك . فالفرد ليس مجرد خلية في كيان الجماعة ، فهو لن يزول إذا فصل من كتلة الجماعة أو أقصي عنها . إن المجتمع إذا كانت له حياة تسيطر على حياة الأفراد الذين منهم يتكون فإنها مع ذلك لا تكون حياتهم كلها . إنه إذا كان للمجتمع كيان يريد أن يثبتته مستعينا بحياة الفرد ، فإن للفرد كيانه الخاص الذي يريد أن يثبتته مستعينا بحياة المجتمع . لذا فإن فكرة أن «يفعل المرء ما يشاء» فكل أمة أو طبقة أو مدنية مقضي عليها بالانحلال والزوال عاجلاً أو آجلاً ، إنما هي خرافة لا أساس لها ولا يسند لها برهان ولا حجة راسخة لا تدحض . « إن هذه النظرة لا تنصف فردية الكائن الاجتماعي تماماً كما لا تنصف نظرية العقد الاجتماعي الطبيعة الاجتماعية . ومن التضليل أن نقول أن المجتمع وحده هو الذي يحيا ويتنفس في أفرادهِ ، وإن شعورنا وإحساسنا ليسا غير تعبير عن شعور الجماعة وإحساسها . إننا يجب أن نجيب بأن المجتمع مهما كان لا يعيش إلا فينا ، نحن أفرادهِ . ومن التضليل أن نقول : إن علاقتنا بالمجتمع كعلاقة الأوراق بالشجر أو الخلايا بالجسم . بل يجب أن نقول أن المجتمع لن يبقى له معنى كبير إلا إذا كان الأفراد أنفسهم حقيقيين . ومهما كان في التشابه العضوي من فائدة أدبية وإيحائية فيجب أن لا تصبح في أذهاننا تفسيراً للعلاقة الأساسية في الحياة الاجتماعية وهي العلاقة بين المجتمع والفرد . لأن الكائن العضوي الحي ، مثل

نظرية العقد الاجتماعي الفردي الماكسة ، ينكر أحد طرفي العلاقة ، (١) .

وقد نتج عن اندماج الفرد في المجتمع هذا الاندماج الكلي عبادة الدولة والمجتمع والتضحية بالأفراد بوحشية وقسوة من أجل تمجيدهما . ان الفردية الروحية للإنسان وسلوكه الأخلاقي قد أخضعاً تماماً للمتطلبات المادية البهتة لآلة جماعية تسمى المجتمع ليس الفرد فيها غير سنّ في دولاب . وهذا لعمري هو الدودة التي تنخر في صلب كيان العصر الحاضر . فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن هذه الحقيقة قد جاءت بعهد من الإفلاس الخلقي والروحي وزوال الأخلاق من السياسة .

وهذا الانحطاط ظاهر في سلوك الأمة وواضح أيضاً في الحياة الخاصة والشخصية لأي رجل من أوساط الناس . إذ ما من قاعدة 'تَوَجَّهْهُ' ، فروح الانسان الحديث تقاس بالمال لأن إلهه هو الدولار القدير . إن البعثات التبشيرية ترسل إلى أماكن بعيدة عن بلادهم كي يبقى العدل وتقوم الحرية في العالم ، ومع ذلك فهؤلاء الناس أنفسهم يهملون في بلادهم أسس العدالة وجذور الحرية ولا يستطيع أحد أن ينكر أن المسائل الاقتصادية قد غطت على المسائل الأخرى ، وأن الإيمان بالحياة بعد الموت قد زعزعت المقاصد والأغراض الأخرى وصارت اللجنة على حد تعبير الكاتب الصيني

الشهير لينيو تونغ Linyutong « مخزنًا محفوظًا من السمات المسلحة مملوءاً حتى سقته بالمعلبات » (١) .

لقد صار الانسان عبداً مملوكاً لمصالحه الذاتية . وقد وصف مؤرخ حديث مشهور آثار هذه النظرات الخاطئة عن العلاقة بين الفرد والمجتمع فقال : « ليس المرء في هذه النظرة إلا جزءاً من المجتمع وهي لا ترى أن المجتمع إنما هو من أجل الافراد . لذا فالأمر المهم الخطير في حياة البشر ليس تنمية الأرواح ، وإنما تطوير الحياة العامة للمجتمعات . وفي رأي الكاتب ليست هذه الفكرة صحيحة وإنما حين 'عدت' صحيحة 'وطبقت برهنت على أنها تنطوي على فظائع خلقية ... ومن الناحية الدينية 'تعدت' معاملة الفرد معاملة جزء من المجتمع فقط نكراناً للعلاقة الشخصية بين الروح والخالق وعبادة المجتمع الانساني من دون الله » (٢) .

إلا أن نقطة مهمة يجب أن لا تغيب عن بال القارئ ، تلك هي أن مولد الحضارة وازدهارها والمخطاؤها كلها ألفاظ نسبية ، إذ لا يمكن أن تكون فكرة للتقدم بلا مثل أعلى ، وكل امرئ يعلم أن المثل الأعلى يختلف من إنسان إلى آخر ومن أمة إلى أمة . فالمسلم يرى أن عصر الرسول الكريم محمد ﷺ والخلفاء الراشدين الأربعة من بعده كان أوج الحضارة الاسلامية ، ولكن غير المسلمين يرون أن الحضارة الاسلامية بلغت قمة مجدها حين

Between Tears & Laughters , P. 62

(١)

(٢) Arnold Toynbee ، المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

ظهرت فيها الفنون الجميلة وضمت إلى رقعتها أقاليم أخرى واستبدلت بحياة البساطة والاستقامة والصدق والتقوى حياة طافحة بالملذات والترف والقوة والعظمة الدنيوية . وأن المؤمن يرى أن هذا العصر بالذات هو أكثر العصور دقة وحرًا بالنسبة للمسلمين والاسلام . إن (الفكرة) هي دائماً المؤشر وهي وحدها تعين اتجاه نشاطنا وتبين مقدار قيمة ما ننتج من عمل . ويمكن تقرير ارتقاء الحضارات وسقوطها وفقاً لوجهتها . ولكن حين يختلف المثل الأعلى باختلاف الافراد ، فكيف يمكن أن نضع مقياساً واحداً نحكم به على الفترات المختلفة من حياة حضارة معينة ؟ لقد أشار بروفيسور (ماك آيفر Mac Iver) في كتابه (المجتمع Society) إلى هذه الناحية ، إذ ذكر أن أحد الاجتماعيين يعد تقدم الفرد اجتماعياً هو « اداء الشخصية المتكاملة لوظيفتها اداء كاملاً » ، ومن ثم ينتقل إلى تعريف التقدم الاجتماعي بأنه يتكون من « التغيرات التي تحصل في تكوين المجتمع فتجعل اداء الانسان لوظيفته human functioning حراً من أي قيد ، وتستثيره وتسهله وتكوّن منه وحدة متكاملة » . ولكن أي حل من هذا القبيل ، إنما هو حل ظاهري لا حقيقي . فالتعبيران (اداء الوظيفة اداء كاملاً) و (اداء الانسان وظيفته) هما مثل تعبير (التقدم) نفسه ، ليسا رمزاً لمعنى معين وإنما وعائين لفظيين يضع فيهما كل من يستعملها معنى غير الذي يضعه غيره ، (١) .

(١) MacIver ، المصدر السابق ، ص ٦١٢ .

وحق هنا فإن القضية لا تنتهي ، فالاختلاف بين مختلف
الاشخاص لا يقتصر على مثل الأعلى ، ففكرة التقدم نفسها تختلف
في أهميتها باختلاف الاشخاص والأزمان ، والفئات الاجتماعية .
ففي القرن الثامن عشر كان لفظا (التنوير) و (التقدم) يعنيان
الانطلاق من قيود التقاليد وطغيان السلطة . أما في أمريكا في
أواخر القرن التاسع عشر فكانا يبدوان وكأنهما يعنيان الكشف
عن الخيرات المكنونة في الأرض .

فلسفة هيغل للتاريخ

يمكن تعريف فلسفة هيغل التي يُدين لها ماركس بالشيء الكثير بأنها (مزيج المتناقضات) . فهو يرى أن كل عصر أو فترة أساسية في تاريخ الحضارة الاجتماعية يمثل وحدة مستقلة . وإن ملامحه السياسية والاقتصادية والأخلاقية الاجتماعية العامة والجمالية والعقلية والدينية كلها جوانب أو نواح المجموع الحيّ (Living Totaliy) ، ومنها جميعاً يتكوّن كيان متجانس . « وإن كل فترة أساسية تنمّي فكرتها الرئيسية إلى الحد الأقصى ثم تولد أضدادها أو نقائضها » .

ويستمر الصراع دائماً ، فتتحد المبادئ المتناقضة في وحدة عليا هي (المُوَحَّد) ، وهذا المُوَحَّد يندفع مرة ثانية إلى الحد الأقصى وينشب صراع جديد فيتولد حينئذٍ مرة أخرى مُوَحَّد يحوي ما هو فعال من كل من الفرضية ونقيضها . وبهذا الأسلوب الثلاثي تتقدم الفكرة حتى نصل آخر الأمر إلى (المُطْلَق) الذي نستطيع أن نبقى نتأمله إلى الأبد دون أن نتبين فيه أي

تناقض . ويمكن توضيح ذلك بعدة أمثلة :

« أعلنت اليونان القديمة ديمقراطية محدودة تعني أن بعض الناس ، وهم كل طبقة المواطنين ^(١) ، أحرار . وبهذا اكتشفت أئينا مبدأ الفردية والحرية المقيدتين . وإذا دفعت الديمقراطية اليونانية مبدأ حرية الفرد إلى حد الأنانية المستقلة ، فإنها حطمت بذلك وحدة كيان دولة المدينة (City State) . وقامت روما فأعلنت مبدأ عالمية الشخصية أن الفردية شخص ، كمواطن لامبراطورية عالمية . ولكن روما لم تسلم بأن الفرد من حيث كونه كائناً ذا روح حر فقط من حيث كونه مواطناً . والمسيحية التي قامت في الامبراطورية الرومانية أعلنت ، بفكرتها عن الإله البشر ، الاتحاد الشامل بين الفرد المستقل والروح العسامة . لقد حققت الشعوب الجرمانية هذا المبدأ أول مرة في النظام السياسي الاجتماعي . فكل الناس فيه أحرار من حيث كونهم أشخاصاً ، ولكنهم إذ يكونون أشخاصاً فمعنى ذلك أن يكونوا أعضاء في الدولة التي هي الوحدة الجامعة التي تحمي وتغذي الأسرة والمجتمع المدني والكنيسة والحضارة . فالدولة بلا أعضائها تجريد غير واقعي . والفرد لا يكون إنساناً ما لم يعمل بتعاون باعتباره عضواً في الدولة » ^(٢) .

(١) طبقة المواطنين عند الاغريق هي طبقة الأحرار من السكان .
(المترجم)

Leighton, Social Philosophies in Conflict, p. 75.

(٢)

وهذه الجماعية التي ظهرت في القرن التاسع عشر لا تعدو أن تكون رد فعل للفردية . وهي - حسب ما يرى هيغل - خير وأكثر انطباقاً على الحقائق ، إذ انها تتضمن العناصر الفعالة من الفردية أيضاً . وفي كل حالة تظهر من التقاء الاتجاهات المتضادة نتائج مشمرة .

وهكذا نجد أن جوهر التطور على رأي هيغل ، إنما هو نتيجة صراع المتناقضات ، على أساس أن كل ظاهرة تحتوي تناقضاً داخلياً يدفعها إلى الأمام ويؤدي بها آخر الأمر إلى تحطيمها وتحولها إلى شيء آخر . إلا أن تحطم ظاهرة ما إنما هو الفرصة لانبثاق ظاهرة جديدة تدفع بلا شك الظاهرة السابقة ، ولكنها في الوقت نفسه تحتوي في ذاتها على كل عناصرها الفعالة . وبهذه الطريقة يتحول النظام الفلسفي إلى نظام آخر ^(١) .

وإن كل فيلسوف سبق هيغل اعتبر نظامه حقيقة مطلقة ، وكل ما سبقه من أنظمة مجرد أوهام خداعة ، ولكن هيغل أظهر أن هذه النظرة تنقسم بالسذاجة ، وأن كل نظام فلسفي خطوة في تطور الروح المطلقة ^(٢) . وهذه الروح في كل حقبة من حقبة التاريخ تتوصل إلى إدراك ذاتها بشكل فلسفة محددة تطابق

(١) يقصد هيغل بالنظام الفلسفي Philosophic System الحقائق والأسس والقواعد التي ترتبط بفترة تطويرية معينة من التاريخ . (ي. خ)

(٢) Absolute Spirit .

المحتوى التاريخي لمرحلة التطور تلك. ولكن هذا الشكل يظهر في حقبة أخرى شكلاً قديماً ويخلى مكانه لخليفته الذي يزيحه دون ريب ، ولكنه يحتوي أيضاً في ذاته على ما في الفلسفة المندحرة من نواحٍ فعالة .

ثم إن هيجل يدعي أن الصيرورة ليست متروكة « للمصادفة والأسباب العارضة » بل إن وراءها (إرادة مخططة) ، وأن هدف هذا الصراع والتوفيق إنما هو تطوير (روح العالم)^(١) التي تتجه دائماً نحو غايتها ، ألا وهي تحقيق الذات - Self-Realization .

يقول هيجل : « إننا نستنتج مجرد استنتاج من تاريخ العالم أن تطوره كان دائماً صيرورة عقلية »^(٢) ، وأن هذا التاريخ قد أنشأ الطريق المنطقي الضروري لروح العالم . تلك الروح التي طبيعتها دائماً و'حدة لا تتغير' ، والتي تعرض هذه الطبيعة في ظواهر وجود العالم »^(٣) .

لذا « فإن تفسير التاريخ هو بيان لمواطن البشر وعبقرياتهم وقوام الفعالة التي تؤدي دورها على مسرح العالم الكبير » ، وإن

(١) هي الروح المحركة لهذا العالم ، وهي الله أو المطلق كما يتصورها بعض الفلاسفة . (المترجم)

(٢) يقصد بالصيرورة العقلية الحركة الفكرية نحو الأعلى . (ي. خ.)

(٣) J. Sibree, Hegel's Philosophy of History, p. 11.

الصيرورة التي تقررها المشيئة السامية المهيمنة والتي تعرضها تلك
العواطف والعبقريات والقوى الفعالة ، هذه الصيرورة تكون
ما يسمى بصورة عامة خطة المشيئة العليا ، ^(١) .

قد يبدو لذي النظر السطحي أن الناس أحرار في أن يعملوا
ما يشاؤون كما يريدون ، وأن أعمالهم تنبعث عن ما يشعرون به
من حاجات وعواطف وعن ما يتمتعون به من مزايا ومواهب ،
ولكن هينغل يرى أن هذا تصور شديد الخطأ عانى منه البشر
الكثير منذ زمن سحيق . فهذه الأعمال جميعاً تتم بأمر (روح
العالم) ، وهذه المجموعة الكبيرة من الرغبات والميول والنشاط
تؤلف الأدوات والوسائل التي تستعين بها (روح العالم) لكي
تبلغ غايتها ، وهي التي ترقى بها (أي بالروح) إلى الوعي ،
وهي التي تجعلها حقيقة في عالم الوجود ، ^(٢) .

وكذلك فإن أهداف كل العظماء تدخل فيها تلك القضايا
الكبار التي هي إرادة (روح العالم) . « إنهم قد يسمون أبطالاً
من ناحية كونهم قد استمدوا غاياتهم ودعوتهم لا من الأوضاع
الاعتيادية السائدة التي يقرها النظام القائم ، بل من مصدر
خفي ، ^(٣) .

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤ .

(٢) » » ص ٢٦ .

(٣) » » ص ٣١ .

إنهم ربما يعتبرون أنفسهم رجالاً أحراراً يستمدون باعث حياتهم من أنفسهم وبما يشعرون به شخصياً من أنواع الاهتمام والميول، ولكن الحق أنهم جميعاً 'دمى في يَدَي' (روح العالم). فهم يجهلون تماماً الفكرة العامة التي يعرضونها عندما يسمعون وراء تحقيق أهدافهم تلك. والحق أن عظمتهم ليست إلا في أن لديهم البصر النافذ الذي فيه من العمق ما يكفي لأن يدركوا متطلبات الزمن.

« وكان مما امتازوا به أنهم عرفوا هذا المبدأ الناشئ، وهو الخطوة الضرورية التي ستلي مباشرة في طريق التقدم التي 'قدر' للعالم أن يخطوها، وإن جعلوها هدفهم وبذلوا طاقتهم في الجحاحها، » (١).

إن المسألة هي ما الذي يميز هؤلاء الأبطال عن سواهم من عامة الناس. الفرق الوحيد الذي يبينه هيفل هو صفاء النظر. فهم يسمعون نداء (روح العالم) بوضوح أكثر من بقية الناس. والنتيجة المنطقية لهذا أن هؤلاء الأبطال يجب ألا يعيروا سمعاً لنصح الجماهير لأن الجماهير لم توهب الذهن الصافي الذي يلتقط إشارات (الروح) :

يقول هيفل : « لذا فإن الرجال الخالدين في تاريخ هذا العالم ... أبطال عصر من العصور ... يجب أن يُعترفَ لهم

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

بصفاء البصيرة ويعترف بأن أعمالهم وأقوالهم خير أعمال ذلك العصر وأقواله . لقد كوّن العظماء أغراضاً يُرضون بها أنفسهم ، لا الآخرين . ومهما كانت الخطط الحكيمة والنصائح التي ربما يكونون قد تعلموها من الآخرين ، فإنها تكون في سيرتهم العملية ملامح أضيق حدوداً وأشد تنافراً ، لأنهم هم أنفسهم يفهمون الأمور أحسن مما يفهمها الآخرون ، الذين يتعلم بقية الناس منهم ويؤيدون سياستهم أو ، في الأقل ، يدعّون لها . إذ أن تلك الروح التي خطت هذه الخطوة الجديدة في التاريخ هي الروح التي تسكن أعماق كل فرد ، ولكن في حالة من الغفلة وعدم الوعي ، فيوقظها هؤلاء العظماء الذين نتحدث عنهم . لذا فإن أصحابهم يتبعون قيادة الروح هؤلاء ، لأنهم يشعرون بأن قوة أرواحهم أنفسهم ، هذه القوة التي لا تقاوم ، قد تجسدت بهذا الشكل ، (١) . لذلك فهم معصومون من الخطأ وأعمالهم فوق كل أنواع النقد ، وكل ما يفعلونه سلوك حميد لأنهم عظماء ، وقد أرادوا شيئاً عظيماً ونفذوا إرادتهم وفقاً لحاجة العصر . وإن أعمالهم العظيمة هذه لها أهمية كبيرة تجعلها أسمى من أن توزن ميزان الفضيلة والأخلاق الحميدة . يقول هينغل : «بل أنه ليتمكن لمثل هؤلاء الرجال أن ينظروا إلى المصالح العظيمة الأخرى . . . وحق المقدسة منها بدون اكتراث . وذلك تصرف يعرض أصحابه إلى

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

تأنيب الضمير . ولكن هذا الشكل ذا القوة الكبيرة ، لا بد أن يدوس الكثير من الازهار البريئة - ويحطم الكثير من الاشياء التي تقف في طريقه ،^(١) هؤلاء العظماء وحدهم يعرفون ما هو الشر وما هو الخير وأعمالهم تحمل ختم المصير المطلق المتعالي .

يعتقد هينغل إن هذه الفكرة عن الاخلاقية تحل أحد الالغاز الكبرى في حياة البشر ، وهو أن الطيب التقى غالباً ما ، أو كثيراً ما ، يعيش عيشاً زكداً في هذا العالم ، أما الخبيث الذي يميل إلى الشر فيعيش سعيداً منعماً . فهو يرى أن الانسانية إذا أخلصت نفسها لهدف واحد ووجهت جهودها إليه غير آبهة بكل ما سواه فحينئذ لا يمكن أن يعتبر ما يسمى « تعسا أو منعماً من الافراد القلائل النادرين عناصر أساسية في النظام المنطقي المحكم الذي يسير عليه العالم . وكل ما هو مطلوب إنما هو أن يتحقق هذا الهدف العظيم . وإن الناس يشعرون بعدم الرضا بمجرد أنهم لا يجدون المعاصر ملائماً لتحقيق الاهداف التي يعتقدون أنها حق وعدل »^(٢) .

والأمر الثاني الذي يجب بحثه : ما هو الشكل الذي به يمكن تحقيق الهدف العظيم ؟ يخبرنا هينغل بأنه الدولة ، ولكنها لا تعني عنده السلطة الملزمة التي تكون قانوناً فوق كل فرد أو جماعة

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

وتكون جزءاً من المجتمع . إنها الشكل الذي تتخذه الروح إذ تتجسد تجسداً كاملاً ، وهذا هو اتحاد الذاتي مع الإرادة العقلية ، إنها الكل الأخلاقي ، الذي هو ذلك الشكل من الحقيقة الذي فيه يكون للفرد حرية يتمتع بها.. ولكن بشرط أن يعترف بالأمور المشتركة لهذا (الكل) ويعتقد بها وتتجه إرادته نحوها . إن الإرادة الذاتية والاندفاع الذاتي يحركان البشر ويدفعانهم إلى النشاط ، الذي يحقق « الوجود العملي » . إن الفكرة هي المنبع الداخلي للعمل ، والدولة هي الحياة الخلقية المتصورة التي توجد حقيقة في عالم الواقع . لذا فكل ما لدى الأفراد من أخلاق ، إنما حصل لديهم بهذه الطريقة فقط . إنها في الحقيقة فكرة الروح ظاهرة في المظهر الخارجي للإرادة الإنسانية وحريتها . ويعرفها هيغل بأنها « فكرة إلهية » ، لأنها توجد على الأرض (١) .

هذه بصورة مختصرة فلسفة التاريخ كما عرضها هيغل .

إن الإنسان المتوسط الذكاء يقرّ بأن كل شيء مدين بوجوده إلى نقيضه ، وبأن بين الميول والاتجاهات المتضاربة صراعاً أبدياً ، وبأنه حين يحقق نظام اجتماعي ما كل ما فيه من إمكانيات يبدأ بالانحلال ، وتتولد من باطنه نفسه قوى تحطمه تحطيماً وتقيم أنظمة جديدة على أنقاضه . ولكن هيغل يتوسع في ما يدّعيه أكثر مما يجب . إنه يعتقد أن بين النقااض صراعاً وتوفيقاً دائمين ،

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

وأن الموحّد يحتوي على العناصر التي لا تزال فعّالة من كل من
الفرضية ونقيضها ويقرّبنا خطوة واحدة من الحقيقة^(١) . ونحن
إذا حللنا خط المناقشات عن كذب وجدنا أن هينغل ، على شدة
ذكائه ، لا يفرق بين ما هو نقيض وبين ما هو واضح متميز .
يقول كروجي بهذا الشأن: « من ذا يستطيع أن يقنع نفسه بأن
الدين هو انعدام الفن وإن الفن والدين ما هما إلا تجريدان ليست
لهما حقيقة إلا في الفلسفة ، موحّد الاثنين ، أو ان الروح العملية
هي نفي للروح النظرية ، وأن المحسوس نفي للحدس وأن المجتمع
المدني نفي للأسرة وأن السلوك الخلقي نفي للحقوق ، وإن كل
هذه التصورات لا يمكن التفكير فيها خارج نطاق موحّدها
الذي هو الروح الحرة والفكر والنزعة الأخلاقية للدولة ، بنفس
الطريقة كالوجود وعدمه ، التي لا تصدق إلا بالصيرورة فقط»^(٢) .

إن منطقة الحدود بين الفرضية ونقيضها فيها من التداخل
والاتصال الوثيقين بينهما ما يجعل رسم خط فاصل بينهما أمراً
مستحيلاً . وأشد ما يكون هذا تعذّراً في الحركات التي ليست
لها صفة الثبات ، وإنما هي متحركة دائماً . ومهما بلغ المرء من
الذكاء فلن يستطيع أن يقول جازماً: هذه هي نهاية الفرضية وإن

(١) لا يقصد هينغل بذلك الحقيقة المادية بل المطلق الذي تنحل فيه
جميع المتناقضات (ي، خ) .

(٢) Benedetto Croce , What is Living And What is Dead of The
Philosophy of Hegel , P. 97 .

الخطوة التالية تكون في عالم النقيض ، إذ ليس بينها خط حدود واضح يفصل الواحد عن الآخر . ربما يكون فرق في الدرجة ، ولكن لا في النوع .

إننا إذا اعتقدنا بأن النقيض يتولد من باطن الفرضية نفسها أدى بنا ذلك إلى أن نعتقد بأن النقيض هو ضد الفرضية في كل ناحية . وهذا يعني أنه ليس بين النظامين شيء مشترك . وحين تكون الحالة هكذا فكيف يكون ممكناً أن تذوب الفرضية تماماً في خصيمها ؟ إن الامتزاج بينهما لا يكون ممكناً إلا حين يكون بينهما شبه . فإذا فرضنا أن بينهما حقاً بعض العوامل المشتركة لم يكن حينئذ أن نسميها نقيضين ، لأن النقيضين يجب أن يكونا مختلفين في ما بينهما من كل وجه . إن التوفيق بين الفرضية ونقيضها ناتج عن الحب لا الصراع .

أما قول هينغل بأن النقيض لا ينفي إلا النواحي الناقصة من الفرضية فإنه يؤدي إلى سوء فهم آخر . إن هذه الفكرة تجعل المرء يستنتج أن الصراع بين المتناقضات منطقي تماماً وتقوم على إنجاز الحكمة الواعية التي يتمتع بها الأفراد . إلا أن هينغل ، على العكس من ذلك ، يقول أن الأفراد ليس لهم في الخطوط العريضة من التطور التاريخي إلا معلومات بسيطة جداً عما يقومون به فعلاً ، إذ أن كلهم أدوات فقط وليسوا سادة هذه الصيرورة التاريخية . فهذه الصيرورة صيرورة لا شعورية بالنسبة للأفراد .

والسؤال الذي يبرز هنا هو : إذا كانت كل حوادث العالم

ليست نتيجة إرادة الافراد الواعية فكيف تم القيام بها ؟ إن هيجل لا يعطي جواباً معيناً عن هذا . بل إنه ليبدو كأنه يقول ليس الأمر المهم هو كيف تم القيام بها ، وإنما إلى أي حد تبدو هذه الصيرورة اللاشعورية ، حين نلتفت إلى الوراء لننظر إليها ، منطقية ممكنة التصور . وهو يتحدث عن كل هذا التطور كما لو لم يكن من عمل القوى العقلية لأي شخص وهو مع ذلك من عمل (العقل عموماً) . كأن الافكار يمكن أن تؤدي عملها دون أن تكون هذه الافكار في عقل أي شخص ،^(١) . هذه الطريقة من الكلام ليست سوى اضافة الارتباك والإيهام على الكلمات .

إن الافكار ليست مجزأة إلى أجزاء واضحة التقسيم ، بل إن كل فكرة وحدة قائمة بذاتها يستحيل أن تقسم أقساماً مختلفة ، لذا فليس من أساس لما يُدعى من أن نتيجة التوفيق بين الفرضية ونقيضها - وهي النتيجة التي تُسمى الموحد - والتي (أي النتيجة) هي الفرضية الجديدة ، تضم بعض العناصر وترفض الأخرى . ونريد أن نوضح ذلك بمثال :

تمخضت الفرضية (أ) عن نقيضها (ب) . إن لفكرة (أ) حسب رأي هيجل جوانب عديدة هي : (أ ١) ، (أ ٢) ، (أ ٣) (أ ٤) ، (أ ٥) . ومن هذه الخمسة ثلاثة أصبحت باطلة هي : (أ ١) ، (أ ٢) (أ ٣) . أما (ب) التي هي النقيض فإنها تخالف

ثلاثة أجزاء فقط وتحتضن القسمين الآخرين : (أ ٤) ، (أ ٥) .
وهذا يعني أن (أ ١) ، (أ ٢) ، (أ ٣) التي رفضها (ب) هي
العناصر المخالفة . ولو لم يكن الأمر كذلك لسمح (ب) لهم أيضاً
بالانضمام إليه . إن (ب) لا يقبل (أ ٤) و (أ ٥) إلا علم أساس
أن بينهم شيئاً مشتركاً . فيكون الحال الآن هذا :

(ب) نقيض (أ) .

(ب) نقيض (أ ١) ، (أ ٢) ، (أ ٣) لانه يناقضهم .

(ب) نقيض (أ ٤) و (أ ٥) لانه يتفق معها .

وهكذا يتبين لنا أن الفكرة (أ) نفسها خليط من فكرتين
متصارعتين كل منهما مجزأة إلى أقسام مختلفة . فهل يمكن تصور
ربط هذه الأقسام المتخاصمة في فكرة واحدة ؟ أن هذا التصور
لا يقدر عليه إلا رجل من عيار هيغل .

ثم هنالك ناحية أخرى من عدم الاستقامة في حجج هيغل .
فهم يعتقد أن كل عهد يأتي يكون أرقى من العصر الذي سبقه ،
لان الفرضية ونقيضها وموحدتهما ما هي إلا أشكال التطور أو
مراحله . إن الموحد الذي هو نتيجة التوفيق بين العناصر الصحيحة
الفعالة من الفرضية ونقيضها يجب بالضرورة أن تخطو خطى
واسعة إلى الامام . وكذلك يعتقد هيغل أن كل عهد يمثل
وحدة لانه مظهر لشيء واحد فقط ، ألا وهو (روح العالم) .
ويتضح من ذلك أن الحضارة التي هي الكل المركب
complex whole المؤلف من المعرفة والعقيدة والفن والاخلاق

والقوانين والعادات يجب أن تليها حضارة أحسن منها . وللمره أن يتخذ أي مقياس للتحسن ، ولكن التقدم أمر حتمي ومستمر ، وإن مستوى الأوجه المختلفة للحضارة في رقي لا سبيل إلى مقاومته . وكذلك فإن (روح العالم) التي تتجه دائماً نحو الكمال يجب عليها أيضاً أن تقوم بالتوسع والامتداد داخل الرداء الذي ارتدته . لذا فإنه مع تكشف الحجاب عن (روح العالم) يجب أن يحصل أيضاً تحسن في أساليب حياة البشر وطرق تفكيرهم وفنهم وأديهم ودينهم وحق وسائل ترفيههم وتسليتهم . ولكن في سجلات التاريخ تحدياً جريئاً لهذه الحقيقة التي هي النتيجة الطبيعية التي تؤدي إليها طريقة هيغل الديالكتيكية^(١) . فليس في الوجود نمو متناسق يتبع نظاماً اعتيادياً لا شذوذ فيه ، ويمكن نقله من شعب إلى شعب في هذا العالم . وإن تطورها ليس على خط واحد أو تراكمياً ، وإنما هو يحدث أحياناً . . في

(١) نعهد بالديالكتيك المنطق الذي استخدمه هيغل في ما يتعلق بما وراء الطبيعة ، ولتفسير الصيرورة المهيمنة على الكون ككل ، وكذلك الصيرورة المتجسدة في الأنظمة الاجتماعية . أما قاعدة الديالكتيك تباً لرأي هيغل فهي إن لكل فرضية نقيضاً ، ومن اتحاد الفرضية والنقيض في مرحلة من مراحل الصيرورة يتكون عندنا الموحد الذي سرعان ما ينقلب إلى فرضية تثير نقيضاً ، وهكذا . و (ديالكتيك) من الناحية اللغوية تعني الجدل وفن المخاطبة . ولكن هيغل أعطاهم مفهوماً فلسفياً جديداً . لذا فالأفضل الإبقاء على لفظ هذه الكلمة كما استخدمها هيغل وذلك لتمييزها من المعنى المألوف لكلمة (ديالكتيك) الذي هو الجدل أو فن المخاطبة (ي . خ) .

سلسلة من الارتفاعات تشبه البثقات التي ليس لها إلا القليل من الاستمرارية ، إلا في حدود تأثيرها بالطرق الأسلوبية في التعبير طبعاً ، (١) .

لقد دحض بعض الناس هذه الحجة بقولهم : إنه قد حصل حقاً إتساع مستمر في وسائل الراحة المادية بدأ منذ وقت لا تعرف حدوده ، لذا فإن لهيغل الحق في ما ادعاه . ولكنهم مع الأسف خلطوا بين الحضارة والمدنية ، فلم يدركوا أن « الحضارة لا تمثل أحدث الأساليب المتبعة في الحياة العامة ، لا سيما في الأمور الظاهرية من الحياة - في اللباس ، والتقاليد المتبعة في غرفة الاستقبال ، وفي وسائل الترفيه المادية ، وفي ما أشبه ذلك من علامات الطلاء الزائف أو الخارجي . إن هذا الوضع أو الحالة قد تكون مظهراً كاذباً مفتعلاً ، وليس لازماً أن يكون ذلك ممثلاً لحالة عقلية راقية » (٢) . إن الحضارة تتعلق بحالة العقل . لذلك فليس لها صفة التراكم وتكديس الأشياء كالمدينة . بل إن على كل جيل أن يكتسبها من جديد . إن الموضوع ليس مجرد وراثته . وليس من شيء يناقض كون « حصيلة الماضي هي أساس ما نحققه في الحاضر ، ولكن ما من شيء يضمن أن يكون الحاضر مساوياً للماضي فضلاً عن أن يكون خيراً منه » .

Ginsberg , Sociology , P. 46

(١)

Dr. Sayyed Abdul Latif, Islamic Culture Studies , PP. 4 - 5

(٢)

هذه الحقيقة ما من شيء يناقضها حتى في أمر الحضارة . ولا يوجد امرؤ له ذرة من عقل يستطيع أن ينكر أن الرجل الحديث حتى بعد مرور ألف من السنين على حصوله على الانتصار الرائع على الزمان والمكان لا يزال في قبضة الأناية وضيق أفق العقل . لقد عرض بروفيسور آرلولد توينبي المؤرخ الشهير المعاصر هذا الصراع في كلمات قوية جداً ، فقال : « لقد ارتقى علمنا فبلغ درجة من الشعور الإنساني لم يسبق له أن بلغها . فقد أقرت الحقوق الإنسانية للبشر جميعاً مهما كانت الطبقات والأمم والعناصر التي ينتسبون إليها ، ومع ذلك فقد انتكسنا في الوقت نفسه في الحروب الطبقية ، والقومية ، والعنصرية إلى أعماق قد لا يكون سمع بها أحد قبلنا . وهذه المشاعر السيئة تجدد لها متنفساً في أعماق القسوة الغليظة المصممة علمياً ، وإنك لتجد في هذه الأيام الحالتين الفكريتين المتباينتين ومقاييس السلوك المختلفين يعيشان متجاورين في العالم نفسه ، بل في البلاد نفسها في بعض الأحيان وفي النفس الواحدة . ثم أن لدينا قوة في الإنتاج لم نصل إليها من قبل ، وهي توجد إلى جانب نقص وعدم كفاية لم نعان منها من قبل .

لقد اخترعنا الآلات لكي تعمل عنا ، ولكن العمال الفائضين الذين نريد استخدامهم في أعمال الخدمة الإنسانية — بل للخدمات الأساسية الأولية كمساعدة الأمهات في رعاية أطفالهن — أصبح عددهم أقل مما كان . إن ما لدينا هو أن البطالة المنتشرة يحل

محلها دائماً وبصورة ثابتة نقص هائل في اليد العاملة ، ولا شك في أن التضارب بين أفقنا التاريخي المتوسع ونظرتنا التاريخية المتقلصة هو من ميزات عصرنا هذا . ومع ذلك فإذا نظرنا إلى ذلك من حيث ذاته ، فما أعجب التناقض الذي سنجده فيه ،^(١) !

إذا اعتقدنا أن الموحّد الحضاري لعصرنا هذا ناتج ثانوي للدم السليم النقي لكل الحضارات السابقة التي عرفها الإنسان حتى الآن فلا ريب في أنه يجب أن يكون أحسنها وأكملها من كل الوجوه . لكننا نجد الحقيقة بخالفة لذلك تماماً . فعصرنا عصر قد ترابط فيه الانحطاط الخلقي عند الناس مع ازدياد التقدم المادي . فكيف يستطيع هيغل وأتباعه أن يوفّقوا بين هذين الإثنين ؟

وتخالف ذلك مغالطة أخرى ، فإن هيغل يمتدّد أن صيرورة الزمن تتجه من الأدنى إلى الأكثر كمالاً . بالمعنيين الخلقي والمنطقي . إن (روح العالم) تتجه نحو تحقيق الكمال ، ولكنها لم تبلغ بعد هدفها . وربما لن يمكن لها ذلك ما دام هذا الوجود . فحق في يومنا هذا تتعطم الفرضية بسبب التناقض الداخلي الذي فيها ، وتفسح المجال لظهور النقيض (عكس الفرضية) ، الذي يحاول أن يزيل هذا التناقض . وهذا أيضاً يتعطم لسبب ما ، وينشأ موحّدٌ يضم العناصر الفعالة من كل من الفرضية ونقيضها . وهذه الصيرورة سائرة في طريقها تعمل عملها في أمريكا وانكلترا

(١) Arnold Toynbee ، المصدر السابق ، ص ١٥١ - ١٥٢

وروسيا بل في ألمانيا أيضاً، إذ لا يمكن أن توجد فكرة الانتهاء في نظام هيغل الفلسفي . إن هذا هو أساس ما جاء به هذا الفيلسوف الكبير . ولكن هيغل نفسه تصوّر ، على صعوبة توفيق هذه النظرة مع نظريته ذاتها ، أن دولة بروسيا كانت قد بلغت الكمال حقاً بحيث لم تكن أية ثورة ثالية تستطيع أن تأتي بغير المصائب في أعقابها . ولقد يمكن القول أن الحقيقة قد تم الوصول إليها آخر الأمر هناك في ألمانيا في أية فترة ، وأن الخط المتموج قد بلغ قمته .

إننا لنجد عند هيغل محاولة لإعادة الثقة في العقل ، تلك الثقة التي كان (كانت Kant) قد زعزعها ، وهذا هو سبب إدعائه بأن العقل وحده يوجه العالم . وهو يعتقد أن العقل "فكر" يكتفٍ نفسه بحرية تامة . وهو يكره من أعماق قلبه كل ما هو مخالف للعقل والمنطق ويقول : إن الصيرورة الكونية كلها تسير وفق مبدأ عقلي . وهذا هو الذي جعل هيغل يقول قولته المشهورة : « إن كل ما كان معقولاً فهو حقيقي ، وكل ما كان حقيقياً فهو معقول » . وكان يعني بهذا إن الأنظمة الاجتماعية الموجودة وأشكال الحكم التي لا يقررها سوى تطور (الروح المطلقة) هي أيضاً خطوات في حركة العقل ، وهنا يضع هيغل مبدأ الديالكتيكي المثالي ، لذا فإن تطور العقل هو تطور الحقيقة . وهكذا فكل شيء ، سواء كان خيراً أو شراً ، له ما يسوغه ، لأنه منطقي معقول . يقول (بنيديتو كروجي) في معرض

تعليقه على هذه الناحية من فلسفته : « إن فكرة هينغل عن الحياة كانت فلسفية بحيث أن التزعتين المحافظة والثورية ، كل في دورها ، تجد فيها ما يسوّغها . وفي هذه النقطة يتفق إنجلز الاشتراكي والمؤرخ المحافظ ترايتسشه Treitzsche لأن كليهما يرى أن تماثل المعقول والحقيقي يمكن أن يدعى إليه بصورة متساوية في كل الآراء السياسية والأحزاب التي يختلف بعضها عن بعض ، لا من ناحية هذه الصيغة المشتركة ، بل في تعيين ما هو المعقول والحقيقي وما هو غير المعقول وغير الحقيقي . وفي كل مناسبة يُعيد ذلك الحزب السياسي العدة لشن حرب على نظام أو طبقة من طبقات المجتمع ، فإنه يدعي أن خصمه يخالف للمعقول أي أنه ليس له وجود ملموس وحقيقي ، ويكون بهذا الإدعاء قد وضع نفسه مع الفلسفة في خط واحد ، ^(١) .

وواضح أن هذه النظرة فضلا عن أنها تسند كل فجور واضطهاد فهي كذلك تساند أي نوع من أنواع الهييجان . وإذا سلمنا بأن المعقول حقيقي ، فحينئذٍ إذا تبين أن الحقيقي غير معقول وغدا لا يتجاوب مع أفكاره ، فذلك برهان نهائي على أنه صار عتيقا ، ومحكوما عليه بالفناء وعرضة لأن يتحطم . فكانت الملكية موجودة طوال الفترة التي كانت فيها معقولة ، ولكنها في الوقت الذي أصبحت فيه غير معقولة زالت . لذا

(١) Benedetto Croce المصدر السابق ، ص ٦٦ - ٦٧ .

استطاع اليساريون من أتباع هيجل أن يفسروا هذا الفرض لكي يساندهم في صراعهم مع النظام الملكي والدين. وكانوا يستطيعون أن يظهروا أن المسيحية والدين مخالفان للعقول ، لذا فيجب أن يزولا ، ولذلك فإن قتالهما أمر لا مفر منه . ولكن المسألة هي : كيف يمكن أن يقرر أن نظاماً ما من أنظمة الحكم معقول أو مخالف للعقول ؟ والجواب على ذلك هو أن النصر الحربي وحده يقرر ذلك. وهذا ما حدا بالنقاد إلى أن يسموا هيجل « فيلسوف مجلس الحكم السري وحكم طبقة الإداريين للدولة » . وفي هذا القول شيء كثير من الحقيقة .

ففي هذا النظام الذي يمتزج فيه غير المحدود والمحدود في شيء واحد ، والخير والشر يؤلفان صيرورة واحدة والتاريخ فيه هو عين حقيقة الفكرة والروح ، لا شيئاً خارجاً عن إطار تطورها التاريخي ، في هذا النظام تكون كل حقيقة ، بمجرد كونها حقيقة ، حقيقة للفكرة وتابعة للكل المحسوس الذي لا يتجزأ . لذا فكل التاريخ عنده يصير تاريخاً مقدساً ، (١) .

هذا المبدأ ، كما يقول المدّعون بحق ، قد صار قاعدة للمذهب العقلي الحديث ، التي تقول : « إن العاطفة هي الباعث ، وحب السلطان هو الدليل الموجّه ، والقوة هي الأداة » . وتعتقد هذه المدرسة أن الخير والسعادة لا يمكن بلوغها بالتنمية الروحية ولا

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

المادية . وإنما فقط بالتصميم على الحصول على القوة ، . . في الكفاح وفي الانتصار . وإن أي إنسان له شيء يسير من الذكاء ليستطيع أن يتصور مبلغ عظم الفاجعة التي أحدثتها هذه الفلسفة في العالم . فقد ضيّقت دائرة التعاطف الإنساني وجعلت قلوب الناس قاسية وذهبت بما كان لبني البشر من إرهاف في الشعور . وأمسى البشر جماعة من الوحوش لا تم لها في الحياة إلا تدبير أمور السلطان بأية وسيلة - مشروعة أو غير مشروعة .

إن الصيرورة الديالكتيكية التي جاء بها هيغل قد علمت الناس عبادة القوة . وقد ساند هو نفسه كل رجل ارتقى عرش السلطان . « حين حاول نابليون بحراب جيشه أن يدخل العلاقات البرجوازية إلى ألمانيا ، كان هيغل ، الذي كان في ذلك الوقت يضع أسلوبه الديالكتيكي ، يتجاوب مع الثورة الفرنسية ورحب بدخول جيش نابليون إلى (ينا Jena) باعتباره التجسيد التاريخي لشكل جديد للروح المطلقة . ثم سمى نابليون « الروح المطلقة على جواد أشهب » . ولكن بعد عشرين سنة من ذلك حين قوي الحكم الملكي الإقطاعي في ألمانيا ، الذي كان على رأسه فريدريك ولیم الثالث ، كان هيغل قد فقد أفكاره الثورية وأصبح فيلسوف الدولة في مملكة بروسيا » (١) .

ونريد أن ننظر آخر الأمر في نظريته عن الدولة . نحن نعلم أن هيجل يعتقد بأن الانفصال شيء لا وجود له في عالم الحقيقة . فالعالم ، كما يتصوره ، « ليس مجموعة وحدات صلبة ، ذرات أو أرواحاً ، كل منها قائمة بذاتها تماماً . وعنده إن ما يظهر من استقلال ذاتي للأشياء المحدودة ، إنما هو وهمٌ وخيال . وهو يرى أنه مسا من شيء حقيقي تماماً وبصورة نهائية إلا (الكسل) . وهذه العقيدة أدت به إلى أن يستنتج أنه لما كانت الدولة تجسيدا للكل فهي الحقيقة الصادقة وفيها وحدها توجد الفكرة الإلهية . وأن الفرد إذا أراد أن يحقق وجوده لم يستطع ذلك إلا حين يكون عضواً من أعضاء الدولة . ولكن في هذه الفكرة شيء كثيرٌ من التناقض . فالمشكلة هي لماذا يجب علينا أن نأخذ الدولة وحدها تجسيدا للكل ، ولماذا لا نعد العالم كله وحدة كاملة والدول بمثابة أقسامه ؟ إن ذلك أقرب إلى الحقيقة وأكثر اتفاقاً مع فلسفة هيجل ، لأن (روح العالم) تعرض نفسها في كل أرجاء الأرض وما فيها من سكان . إنها لا تحصر نفسها في حدود بلاد أو دولة ، والعالم كله مسرح لها ، فيه البشر جميعاً يمثلون يؤدون أدوارهم وفقاً لرغبتها . إن هذا التعظيم المفرط للدولة والذي ليس له داع ناتج عن رد فعل شعر به العالم بعد (حركة الإصلاح Reformation) . ولقد أدت فكرة الدولة هذه إلى نتائج خطيرة ، فقد ألقى في أذهان الناس أن يوالوا ويناصروا الدولة بلا قيد ولا شرط سواء كانت هذه الدولة تمثل العدل أو الظلم .

وفضلاً عن ذلك فهذه الفكرة عن الدولة ولدت أشد
الإتجاهات الفاشية فظاعة في العالم. وقد ظهر من يدعي بكبرياء
أن أكثر الدول مدنية أشدها عدواناً. « لم يكونوا يعتقدون أن
الرجال يليق بهم شيء غير التدريب على الحرب ، وأما النساء
فلاترفيهن عن المقاتلين ، وأما ما سوى ذلك فسخف » (١) .

هذا المذهب الحربي الذي كان وما يزال أحب المذاهب إلى
كثير من بلدان العالم ، نتج عن نظرية هيغل عن الدولة . فالدولة
تعتبر قانوناً بذاتها. « إنه يرى فيها العقل المطلق الواصل من نفسه
الذي لا يعترف بأية سلطة سوى سلطته ، والذي لا يقر بأية
قواعد مجردة للخير والشر والعيب والخسة والاحتتيال
والخدعة » (٢) . لذا فاللاجوء إلى كل أنواع الوسائل ، مهما كانت
منافية للأخلاق ، يعد أمراً مشروعاً إذا كان من أجل الدولة .
إن الفاشية هي الطفل السياسي الذي أنجبته ديالكتيكية هيغل .
يقول دوغلاس اينسلي : « إن اعتبار هيغل للحقيقي والعقلي شيئاً
واحداً قد أدى به إلى أن يساند باندفاع عمل الدولة وكل
المعظماء » (٣) . إن موسوليني ليتحدث عما في قلب هيغل حين

(١) Neitzche .

(٢) Die Absolute Regierung in System der Sittlichkeit

(٣) Benedetto Croce ، المصدر السابق ، ص ١٥ من المقدمة وص
٣٢ من الكتاب .

يقول : « إن الدولة هي المطلق حين تقارن بكل الأفراد أو الجماعات . إن توسع الأمة عرض جوهري للحياة ، ونقيضه هو علامة للتردّي والانحطاط » .

إن الأبطال المسؤولين عن توسع الدولة معصومون . وكل ما يقومون به صحيح . لذا لا يجوز لأحد أن ينتقدهم . وهؤلاء الأبطال يجب أن يقوموا وخدمهم بإملاء إرادتهم لأنهم يستطيعون أن يتصوروا حقيقة عصرهم تصوراً صحيحاً . هذه النظرية عن الدولة قد حثت الناس على اتباع أوامر الحكام اتباعاً أعمى وزعزعت كيان الأخلاق من أساسه .

ولن يكون خارجاً عن الصدد إذا ذكرنا أن هينغل قد غص النظر عن بعض من أهم حقائق التاريخ ، وذلك من أجل أن يبرهن على صحة نظريته الديالكتيكية . فتاريخ العالم الذي وضعه هينغل ذو شكل ثلاثي كما تصوره .. وهو العالم الشرقي ، والعالم الإغريقي الروماني ، والعالم الجرمني . وهذه عنده هي الفرضية والنقيض اللذان يصبحان واقعاً محسوساً لما هو أحسن أو أسوأ في الصيغة ، إن الشرق عرف ويعرف أن شخصاً واحداً فقط حر ، والعالم الإغريقي الروماني أن بعض الناس أحرار ، والعالم الجرمني أن كل الناس أحرار . لذا فشخصية الأول استبدادية ، والثاني ديمقراطية وارشتراطية ، والثالث ملكية . وهذا الاستنتاج قد أراد الوصول إليه لغرض مساندة الحكم الملكي في ألمانيا . ولأجل أن يثبت هذا الثلاثي فإنه بمحض هواه غطى

حقائق كثيرة عن المكان والزمان . « ففي المكان يحذف تماماً القسم الخامس من العالم ، وهو استراليا ، وجزراً أخرى بين آسيا وأمريكا تبدو عنده متأثرة « بالتخلف المادي » وأمريكا ليست عنده إلا ذيلاً للمدنية الأوروبية وهو يرفض أن يراعي في حكمه ، ما كان للمكسيك وبيرو من مدنية قديمة ، لأنها ، مما نعرف عنها ، كانت طبيعية تماماً ومحتماً عليها أن تموت عند اقتراب الروح . أما عن الزمان فهو يدعي أن التاريخ لا يبدأ إلا حين يوجد المؤرخون ، ومن هنا كانت الكلمة الألمانية Geschichte (أو الكلمة الإيطالية Storia) تعني أن للتاريخ وجهة ذاتية a parte subjecti ووجهة موضوعية a parte object . ربما يكون الناس قد قضوا من الحياة زمناً طويلاً من غير أن يكون لهم دولة ، ولكن هذا ، الذي هو حياة ما قبل التاريخ بالنسبة لهم ، لا علاقة له بالتاريخ . وإشارة إلى هذه الحدود في الزمان والمكان ، يكتب هيجل في أحد دفاتره في آخر سنة من حياته : « إن التقسيم الذي قسم به الإغريقون تاريخ العالم لا يزال هو نفسه نافذاً » (١) .

(١) المصدر نفسه ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

الفكرة المادية عن التاريخ

كل من درسوا كتابات كارل ماركس دراسة شاملة بمجموعت
على أنه قد أولى اهتماماً كبيراً لتفسيره للتاريخ ، الذي أصبح
أساساً للماركسية ، وأن هذا التفسير قد أثر على نظرة الناس
العامة ، رجالاً ونساء ، وعلى مشاعرهم وعقائدهم فضلاً عن تأثيره
على الفكر السياسي للعصر .

إن مختلف المصادر تكشف لنا أن ماركس لم يكن منشئ
التفسير الديالكتيكي للتاريخ ، وإنما أخذ ماديته من آخرين كثيرين
سلكوا السبيل نفسه وصبّ فلسفته في القالب الذي اقترحه
ديالكتيك هيغل^(١) . ولكنه وجد أن هيغل واقف على رأسه ،

(١) إن المادية التاريخية البسيطة يمكن أن ترى كاملة النمو في بحث أعده
(هولباخ Holbach) وطبع قبل قرن ، وهي أيضاً مدينة بالكثير إلى
(سبينوزا Spinoza) . وقد أعاد (فويرباخ Feuerbach) تقرير شكل مبدد
منها في أيام ماركس نفسه . ويمكن أن ترى النظرة إلى التاريخ الإنساني على
أنه دراسة للحرب بين طبقات المجتمع عند (سان سيمون Saint Simon) . =

لذا فقد عدل وقفته فأقامه على رجليه . فقد أصر هينغل على أن كل ما يحصل من تغير في العالم المادي الحقيقي ، إنما هو مجرد انعكاس لا إرادي لتقدم وتطور (روح العالم) ، أما ماركس

= وقد اعتنقها إلى حد بعيد مؤرخون فرنسيون متحررون من معاصريه مثل (تيري Thierry) و(مكنيه Mignet) وكذلك المؤرخ المحافظ كيزو Guizot). أما النظرية العلمية لجمعية حدوث الأزمات الاقتصادية حدوثاً منتظماً ، فربما كان أول من وضعها (سيموندي Stimon-di) . وأما النظرية العلمية لظهور الطبقة الرابعة fourth estate فقد اتخذها دون ريب أرائل الشيوعيين ، ودعا إليها في ألمانيا في أيام ماركس كل من (فون شتاين Von Stein) و (هيس Hess) . وأما التسلط المطلق للطبقة العاملة (دكتاتورية البروليتاريا) فقد وضع (بابوف Babeuf) خطوطه الكبرى بشكل ظلال ، وذلك في آخر عقود القرن الثامن عشر ، ووضع هذه الفكرة بشكل واضح في القرن التاسع عشر وبإشكال مختلفة كل من (فايتلنغ Weitling) و (بلانكي Blanqui) . وقد زاد في إيضاح المركز الحاضر والمستقبل للعمال وأهميتهم في الدولة الصناعية (لوي بلون Louis Blanc) واشتراكيو الدولة الفرنسيون بشكل أكثر تكاملاً مما يوافق ماركس على إقراره . إن نظرية القيمة المبنية على العمل تستمد من (لوك Locke) و(آدم سميث Adam Smith) والإقتصاديين القدامى المحافظين (الكلاسيكيين) ونظرية الاستغلال وقيمة الفائض (Theory of exploitation and surplus value) ومعالجتها بسيطرة الدولة سيطرة مباشرة يمكن أن نرى في كل من (فورييه Fourier) وفي كتابات الاشتراكيين الأوائل مثل (بري Bray) و (تومبسن Thompson) و (هولجسكين Holdgskin) .

(نقلاً عن كتاب: (Karl Marx and His Life Environments by Isaih - Berlin pp. 14 - 15) كارل ماركس وبيئات حياته ، لايسايه برلين ص ١٤ - ١٥) .

فقد أكد حقيقة العالم الخارجي وبين أن المثل العليا والأفكار عند بني الإنسان ، إنما هي نفسها نتاج البيئة الإقتصادية المادية وما يحصل فيها من تغير . لذا فليس لها وجود مستقل خاص بها . وإن صراع المتناقضات لا يحصل في عالم الأفكار كما أدعى هيغل وإنما في عالم أحوال الناس الواقعي بواسطة ما يحصل في الكيان الإقتصادي للمجتمع من تغير .

وقد رأى مار كس كثيراً من الأخطاء في نظام هيغل ، كما بين مار كس نفسه في فقرة مشهورة من مقدمته للجزء الأول من كتاب (رأس المال) إذ قال : « إن أسلوب الديالكتيكي ليس مجرد أسلوب يخالف لأسلوب هيغل وإنما هو عكسه تماماً ، لأن عملية التفكير عند هيغل هي خالقة العالم الحقيقي ، والعالم الحقيقي ليس إلا الشكل الخارجي الذي تتخذه الفكرة ، أما أنا فأرى أن الفكرة ما هي إلا العالم المادي بعد أن يعكسه ذهن الإنسان ويصوغه في شكل افكار ، » (١) .

وهو يبدأ في كتابه هذا بأن يسأل هذا السؤال : ما هو المبدأ الذي يحكم كل العلاقات بين البشر ؟ ويحيب على ذلك بأنه الهدف المشترك الذي يسعى كل الناس لبلوغه ، وهو إنتاج الوسائل التي

(١) يقول في رسالة إلى (كوكلمان Kuqolmann) عام ١٨٦٨ : « إن ديالكتيكية هيغل هي الشكل الأسامي للديالكتيكيات ، ولكن تجريدها من شكلها المبهم Mystical Form هو بالضبط الشيء الذي يميز أسلوب .

يبدعون بها حياتهم ، وبعد الإنتاج تبادل الأشياء التي أنتجوها ،
فإن على الإنسان أن يعيش ثم يستطيع أن يبدأ بالتفكير . لذا
فإن الأمر النهائي الذي يقرر التغير الإجتماعي يمكن أن يوجد لا
في أفكاره عن الحقيقة الأبدية والعدالة الإجتماعية ، وإنما في ما
يحصل من تغير في أسلوب الإنتاج والتبادل . وإذا تركنا جانباً
ما لا ضرورة له من تفصيلات الفكرة الماركسية عن التاريخ ولم
ننظر إلا إلى الجوانب المهمة في هذه المشكلة وجدنا الفروض
الرئيسية التالية :

١ - يدخل الناس في غمرة الإنتاج الإقتصادي الإجتماعي
في بعض العلاقات ويضطرون دون إرادتهم إلى أن يكونوا
بعض الظروف . وإن ظروف الإنتاج هذه تتفق مع مرحلة معينة
من تطور القوى المادية .

٢ - إن ظروف الإنتاج إذا أخذت ككل ، تكون الكيان
الإقتصادي للمجتمع . وهذه هي القاعدة المادية التي يقام عليها
بنيان القوانين والأنظمة السياسية والتي إليهم يرجع بعض
أشكال الوعي السياسي .

٣ - ليس وعي الإنسان هو الذي يعين أشكال الوجود ، بل
أشكال الحياة الإقتصادية والإجتماعية هي التي تعين الوعي .

٤ - بعد أن تبلغ قوى الإنتاج المادية مرحلة معينة من
التطور تصطدم مع ظروف الإنتاج الموجودة ، أي مع نظام

الإنتاج الذي تعمل في ظله .

هـ - إن تاريخ المجتمع منذ وجد حتى الآن هو تاريخ صراع طبقات : حر وعبد ، نبيل وعامي ، سيد وخادم ، رب عمل وصانع ، وبكلمة واحدة ظالم ومظلوم .. كلهم وقفوا موقف المعارضة الدائمة بعضهم لبعض ، وقاموا بحرب لا انقطاع لها ، تختفي عن الأنظار حيناً وتظهر حيناً آخر : حرب كانت تنتهي إما بإعادة بناء المجتمع كلياً بشكل ثوري ، أو بتدمير الطبقات المتصارعة جميعاً .

هذه إذن هي الفكرة الماركسية عن التاريخ التي ادعى الإنجاز ، بجانب قبر ماركس ، أنها أمدت علم العلاقات الاجتماعية بالشيء الكثير . « مثلما اكتشف دارون قانون التطور في الطبيعة العضوية اكتشف ماركس قانون التطور في تاريخ البشر . لقد اكتشف الحقيقة البسيطة التي ظلت حتى الآن مغفلة بما نبت فوقها من العقائد .. وهذه الحقيقة هي أن الإنسان يجب أولاً أن يأكل ويشرب ويتخذ مسكناً ولباساً قبل أن يستطيع أن يبحث عن سياسة أو دين أو علم أو فن وما سواها . لذا فإن إنتاج وسائل المعيشة المادية ، وما يتبع ذلك من درجة التطور الاقتصادي التي يحصل عليها بعض الناس أو تكون في حقبة ما ، كلاهما يكونان الأساس الذي تنمو عليه الدولة والأنظمة والأفكار القانونية والفن وحتى الأفكار الدينية لهؤلاء الناس ، والذي يجب أن تفسر هذه الأشياء على هداه لا أن يفسر هو على هدى هذه الأشياء كما

كان يحصل حق الآن ، (١) .

إنه لمن سوء حظ البشر أن ظهر ماركس في أفق العالم في عصر كان ينظر فيه إلى الثروة المادية وامتلاكها على أنها الهدف الوحيد في الحياة. فقد كانت المسيحية تكاد تكون قد استنفدت ما فيها من قوة . وكانت القوة الهائلة والسيطرة على الموارد المادية التي وضعها التقدم العلمي تحت تصرف الإنسان قد جعلته يفكر أنه ليس وراء المادة شيء . وكان ينظر حق إلى غرائز الإنسان ومشاعره وعواطفه وضميره على أنها منتجات ثانوية لها. ولم يكن من اختلاف جوهري بين الإنسان والحيوان غير أن الإنسان يستطيع أن يتكلم والحيوان لا يستطيع . والأول قد نتج عن الثاني بعملية التطور . وحياة الإنسان خاضعة تماماً لقوانين العالم المادي التي لا سبيل إلى تغييرها .

هذا التغير في النظرة بعيد المدى من حيث نتائجه . فوجهه الذم بصراحة إلى كل الفلسفات التي كانت تتحدث عن الإنسان على أنه صاحب (إرادة حرة) وُنظِرَ إليها نظرة إحتقار باعتبارها من مخلفات الماضي لا غير . وأصبحت أساليب التفكير ذات القوانين الدقيقة التي تشبه قوانين العلوم الطبيعية التي تحكم الظواهر الطبيعية مقبولة لدى الناس . وأبعدت أفكار الأخلاق والضمير إلى حيث لا سبيل إلى رؤيتها. ولم يكن من الظواهر ما

يستحق الاهتمام إلا ما كان ظاهراً للعواس .

هذه هي أسس الفكرة المادية عن التاريخ . وقد أغرى ماركس بها ما كان للعلوم الطبيعية من بريق خارجي . ولما كان هو نفسه يتصور أن الإنسان مجرد آلة ، فقد حاول أن يصوغ القوانين الإجتماعية على غرار طبيعة القوانين الطبيعية . ولا شك في أنه من أجل بلوغ هذه الغاية حرّف الحقائق . لقد كان في ذهنه هدف واحد فوق كل شيء وهو أن يبرهن بطريقة ما على أن أسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يعين الطابع العام لطرق الحياة الإجتماعية والسياسية والروحية . إن (إنسانه) مجرد تماماً من حرية الإرادة . والباعث الوحيد لأعماله هو الحصول على وسائل الراحة المادية . وإن الطريق لتحقيقها هو القاعدة الحقيقية التي عليها يرتفع صرح حياته الفردية والجماعية . وحين تتغير هذه القاعدة يحصل تغير كامل في البناء المقام عليها . لذا فإن وسائل الإنتاج هي الحكم الفصل الحقيقي الذي يقرر مصير البشر . والنتيجة الطبيعية لهذا إننا سنكون ملزمين بأن نقر بأن (الجماعة) وحدها هي الحقيقة وأن الوجود المستقبل للأفراد مجرد دُوم . إن كرامة الإنسان خداع محض ، وكل من يفخر بأن يدعو نفسه حراً وإنساناً ذا تفكير قويم إنما يزرع تحت وطأة أفكار خاطئة أشد الخطأ ، فها هم إلا وحشد من مخلوقات آلية لا إرادة لها .

وواضح إن هذه النظرة للحياة الإنسانية لا تنصف الفرد

حق الأنصاف ومشحونة بعيوب خطيرة .

« إن الرابط بين التغير الاجتماعي وعملية التطور الإقتصادي أقل بكثير تأثيراً وبساطة وكفاية مما يقرره علم النفس الماركسي . إن علم النفس الذي يفتقر إلى الكفاءة ربما هو الضعف القتال للعتمية كلها . فقد زعم ماركس أن الإنسان يستجيب للتغيرات التي 'تدخل' في نظام الإنتاج ... أما كيف تدخل فهو لا يقول لنا لأنه يتكلم كما لو كان الأسلوب الفني المتغير في الإنتاج هو نفسه يشرح نفسه وهو السبب الأول في صيرورة هي ، ببساطة ، صيرورة محتومة . إنه يتجاهل تعقيدات التعود من جهة والنفور من جهة أخرى . إنه يبسط النظرات التي تتجمع حول الأنظمة ، فالتماك والإخلاص بالنسبة للعائلة والمهنة والأمة كلها خاضعة للطبقة الإقتصادية ... ما يحتمه الإقتصاد ، أي بكلمات أخرى لا تحل المشاكل الكبرى للوثرات الاجتماعية . وإن الحل الذي استهدفته هذه المحاولة يستبعد تأثير عوامل أخرى كثيرة جداً ، (١) .

ونريد الآن أن نأتي إلى فلسفة ماركس نفسها . فالسؤال الأول الذي يرد إلى الذهن هو : ما هي قوى الإنتاج ؟ كيف تأتي إلى هذا الوجود ؟ أهى حقاً العوامل الأولية في تطور الإنسان ؟ « إن قوى الإنتاج هي القوى التي يستخدمها الإنسان

(١) MacIver ، المصدر السابق ، ص ٥٦٢ - ٥٦٣ .

في الإنتاج الإقتصادي ، من صفات الخصب في التربة والخواص التي تتميز بها المعادن والقوى الآلية والكيميائية في الطبيعة وحرارة الشمس وقوة البخار والكهرباء وكذلك قوى الحيوانات والإنسان نفسه ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن هذه القوى وجدت منذ وقت غير معروف ، قبل أن يبرز فجر المدنية بكثير . ومع تقدم الزمن اتسع عقل الإنسان فاكشف هذه القوى الكامنة في أعماق الطبيعة ، وأزاح الحجاب عنها وسخرها لفائدته . وتاريخ الإنسان حافل بالشواهد ، على أن ذكاء الإنسان كان العامل الأول في اكتشاف هذه القوى ، ولو لم يكن الأمر كذلك ، لو لم تكن حاجة إلى الذكاء لاكتشاف قوى الطبيعة واستخدامها لاكتشفتها الحيوانات أيضاً واستخدمتها . ولأنشأت الأجناس الدنيا مدنيات بالسرعة التي تنشئها بها الأجناس العليا ، (١) .

ولنفرض أن المصادفات كشفت للإنسان عن كثير من قوى الطبيعة المخفية . فإذا كان هذا هو الأمر فعلياً أن نقر بأن عدداً غير قليل من الاكتشافات يجب أن يكون من نصيب الحيوانات . ويجب أن تكون الحيوانات الدنيا قد أتت بالكثير من المخترعات المدهشة ، لأن المصادفات يجب أن تكون قد صحبتهم هم أيضاً . ولكن التاريخ لا يدعم هذا القول . فلم يكن للحيوان

(١) Karl Federn , The Materialist Conception of History , P. 8

اختراع ما لأنه ينقصه موهبة التفكير البنّاء التي هي أمر ضروري جداً للاستفادة منه فائدة طيبة. ثم إن هذه الاكتشافات لم يتوصل إليها كل مخلوق ذي عقل ، ولم يحظ باكتشاف الأشياء الجديدة ووضع القوانين الجديدة وإزاحة الستار عن المواد الجديدة المكنوزة في طبقات الأرض أو في الفضاء إلا ذوو الذكاء الحارق من بني الإنسان. « ملايين الأغصان نمت على الأشجار أو كانت ممددة على الأرض يمكن أن تقوم بعمل العتلات أو تكون سياجات ، وكانت في الأرض أحجار حادة كثيرة يمكن أن تتخذ سكاكين أو فؤوساً ، والبخار ظل يرفع غطاء إبريق صنع الشاي مائة ألف مرة ، ومع ذلك لم يصبح الاكتشاف ممكناً حق جاء رجل ذو ذكاء كاف وعزم على أن يستفيد من الغصن أو الحجر ، ورجل موهوب فرأى أن البخار الذي كان يرفع غطاء إبريق صنع الشاي يمكن أن يفيد في أغراض أعظم بكثير»^(١).

هذه الحقائق يمكن أن تتضاعف إلى أي عدد ، وهي كلها تنكر ادعاء كارل ماركس أن تطور قوى الإنتاج يقرر كيان المجتمع الاجتماعي والسياسي ، خلافاً لما يكشفه التاريخ من أن عقل الإنسان هو الذي يكتشف وينمي قوى الإنتاج واحدة بعد أخرى .

ولو أن ماركس اكتفى بأن يقرر أن أساليب الإنتاج قد

(١) المصدر نفسه ص ١٠ .

أثرت في الحياة الاجتماعية أو السياسية لأية أمة لما عارضه أحد . ولكنه توسع في هذا الإدعاء إلى حد الإسراف . فأعلن بإصرار أن أسلوب الإنتاج هو القالب الذي بموجبه تنمو أنظمة الأمة ، وأنه الأساس الذي عليه يرتفع صرح الحياة السياسية والاجتماعية لأية أمة ، وأن وعي الأمة لا يقرر أشكال وجودها ، وإنما أشكال الحياة الاجتماعية هي التي تعين وعيها . إنه يقول : « إن مجموع علاقات الإنتاج هذه يكون الهيكل الاقتصادي للمجتمع — وهو الأساس الحقيقي الذي يقام عليه الكيان القانوني والسياسي والذي ترجع إليه أشكال معينة من الوعي الاجتماعي . إن أسلوب الإنتاج للحياة المادية يقرر مجرى الحياة الاجتماعية والسياسي والعقلي كله . وإن وعي الإنسان ليس هو الذي يقرر حالة وجوده ، وإنما حالته الاجتماعية هي التي تقرر وعيه » .

وبشيء المنطقي الذي يتبع هذا هو أن أسلوب الإنتاج هو الدامل الحاسم في حياة الفرد أو المجتمع . لذا فالأشخاص أو المجتمعات التي تواجه مشاكل اجتماعية من نوع واحد يجب أن تتصرف بشكل واحد . ولكن هذا غير حقيقي ، فالرجل الذي يواجه فقراً مدقماً يستطيع أن يسلك إحدى سبل كثيرة . فهو قد ينهي حياته بطلقة من مسدس ، وقد يجنح إلى السرقة ، أو يتخذ سبيل الاستجداء ، أو ينضم إلى حزب سياسي ويضعي بكل ما لديه في سبيل الواجب نحو إخوته من البشر . أما أي هذه السبل يسلك وأياً يرفض فأمر يعتمد على تكوينه الفكري

وميدوله الشخصية وتربيته ، وتساعده في اتخاذ قراره عوامل لا
حصر لها . إنه دون ريب واقع تحت تأثير الوضع الاقتصادي ،
ولكن الوضع الاقتصادي لا يقرر حياته . وشبيه بذلك الجماعات
والأمم . كانت ولايات الإغريق في ما بين ٧٢٣ و ٣٢٥ قبل الميلاد
تجابه مشكلة زيادة السكان ، فعين ازداد ضغط هذه المشكلة
زيادة بالغة قامت الولايات المختلفة بحلها حلولاً مختلفة ، « فبعضها
مثل كورنثوس ^(١) وخالكيس ^(٢) تخلصت من زيادة السكان
بأن اغتصبت واستعمرت أقاليم زراعية في الخارج وراء البحر ،
في صقلية ، وجنوب إيطاليا ، وتراقيا وأماكن أخرى . ولما
كانت هذه المستعمرات الإغريقية قد أنشئت بهذا الشكل ، فقد
وسّعت البقعة الجغرافية للمجتمع اليوناني دون أن تغير شخصيته .
ولكن ولايات أخرى اتخذت حلولاً نتج عنها تغيير في طريقة
حياتها .

فاسبارطة أوجدت لأبنائها الأرض بأن هاجمت أقرب جيرانها
من الإغريق واحتلت أراضيهم . وكانت النتيجة أن حصلت
اسبارطة على ما كانت تريده من الأراضي الجديدة ، ولكن ثمن
ذلك كان حروباً متكررة لا تنتهي مع شعوب مجاورة . ولأجل
معالجة هذا الموقف اضطر رجال الحكم في اسبارطة إلى أن يعملوا

(١) Corinth .

(٢) Chalcis .

حياة اسبارطة حياة عسكرية من رأسها إلى قدمها، وذلك بإعادة القوة إلى أنظمة اجتماعية بدائية مألوفة عند عدد من المجتمعات الإغريقية ، واستخدامها ، وذلك في الوقت الذي أصبحت فيه هذه الأنظمة في اسبارطة وغيرها على وشك الزوال .

د أما أثينا فقد عاجلت مشكلة السكان بطريقة أخرى . فقد وقفت إنتاجها الزراعي للتصدير، وبدأت الإنتاج، ثم طورت أنظمتها السياسية بحيث تعطى حصة عادلة من القوة السياسية للطبقات الجديدة التي أوجدها هذا التجديد الاقتصادي. وبتعبير آخر ، تفادى رجال الحكم في أثينا من ثورة اجتماعية بأن قاموا بثورة اقتصادية وسياسية . وإذا اكتشفوا هذا الحل للمشكلة العامة بمقدار ما كان لها من أثر عليهم هم أنفسهم فإنهم فتحوا مصادفة طريقاً جديداً لتقدم المجتمع اليوناني كله ، (١) .

يتضح من هذا المثال أن أمماً مختلفة تعيش في ظروف اقتصادية متماثلة ولها أساليب إنتاج متماثلة اتخذت طرقاً مختلفة وفقاً لمشيئتها. لذا فالقول بأن الوضع الاقتصادي أو أسلوب الإنتاج يقرر كل أشكال نشاط الإنسان خطأ . إن الطريق الذي تختاره أمة ما يعتمد على عوامل عديدة هي : النمو العقلي الذي نمته ، والمنهج الأخلاقي الذي تنهجه ، والبيئة الجغرافية ، والتأثير العنصري .

(١) Arnold Toynbee , A Study of History , abridyed by D. C. Somervell , P. 4

إن سجل التاريخ حافل بالأمثلة التي تناقض النظرية الماركسية .
فلقد كانت حب الوطن أو الأمة أو الانتساب إلى دين ما
أقوى بكثير من الباعث الاقتصادي المجرد . كتب بروفيسور
أليكساندر غري ملاحظة مهمة جداً هي : « لا ينكر إلا القليلون
أن التاريخ إذا أريد له أن يكون شاملاً يجب أن يسجل في
صفحاته كل شيء عن مخزن حفظ الأطعمة في المطبخ ، ولكن في
التاريخ أيضاً شيئاً كثيراً غير العامل الاقتصادي . فالإنسان لا
يقصر حياته على أن يحب على بطنه ، فكم في الحماس والولاء
والإيحاء والإلهام من حوافز الإنسان على العمل وهي ليست
اقتصادية قط ، ولكنها في الوقت نفسه تؤثر على الظروف
الاقتصادية . وفوق كل ذلك ، فإن تأثير الذهن على الذهن مع
نتائج هذا التأثير البعيدة ، وهو من أعظم أنواع التأثير في العالم ،
يستعصي على التفسير الاقتصادي . ولو فرضنا أنه قد يمكن أن
نفسر كيف جاء دانتي ^(١) ، ومحمد ، وكالفن ^(٢) ، وماركس ،
ولويد جورج ^(٣) وجورج روبي ^(٤) حين جاؤا فعلاً ، فستبقى
مسألة أكثر صعوبة بكثير وهي أن نفسر كيف أو لماذا جاؤوا

(١) . Dante

(٢) . Calvin

(٣) . Lloyd George

(٤) . George Robey

في الأصل ولماذا لم يبقوا في عالم العدم . والأمر الذي يزيد على هذا صعوبة هو أن نفسر كيف يجسد الرجل العظيم جماعته الذين ينطقون بلسانه ، والذين قد ينقلون تأثيره هنا وهناك في أجزاء مختلفة من العالم ، إذ أن كالفن كان يمكن ألا يجسد نو كس ^(١) ، وماركس كان يمكن ألا يكون له لينين . إن الأصوب عند تفسير التاريخ أن يتواضع المرء ، وربما أن يعتقد بعدم كفاية عقله لإدراك الغيبيات ، ذلك أنه يدرك أن تاريخ الإنسان إنما تكونه عوامل كثيرة ، ليس الاقتصاد إلا عاملاً واحداً منها ولعله ليس أعظمها شأنًا ، ^(٢) . فالصراع من أجل الحصول على وسائل الحياة هو ، دون ريب ، اللون الذي تتميز به حياة أغلب البشر ، ولكن ذلك لا يجعلنا نزع أنـه هو العامل المهم الوحيد في كل مجموعة المؤثرات المتفاعل بعضها مع بعض والتي تعين الظواهر الاجتماعية . وكما « أننا لا نستطيع أن نقول : بما أن الرسام يعتمد تماماً على صندوق ألوانه ، فإن طبيعة ما في الصندوق تفسر الصورة » ، كذلك لا نستطيع أن نقول : إن كفاح الفنان من أجل الحصول على معاشه يفسرها أنه سيكون حقاً استنتاجاً كبيراً أن نستنتج أن الوسائل التي نستخدمها توضح تماماً الغايات التي نستخدم من أجلها هذه الوسائل ، وهو استنتاج يحتاج فيه المرء إلى براهين لا

(١) Knox .

(٢) Alexander Gray , The Development of Economic Doctrine
P. 307 .

يقدمها لنا ماركس،^(١) إن الفنان لا شك يستمد هيكل صورته من العالم الخارجي، إلا أن الشيء الذي يضيف على الصورة سحراً وأصالة هو الروح التي تنفخها عبقرية فكره في ذلك الهيكل . فشيكسبير مثلاً استقى المادة التاريخية المسرحيات الرومانية الثلاث : يوليوس قيصر ، أنتوني وكليوبترا ، وكوريو ليناس من ترجمة سير توماس نورث^(٢) لنسخة الأسقف آميو^(٣) الفرنسية من كتاب (تاريخ حياة رجال) بلوتارك^(٤) ، ولكن الشيء الذي أعطى هذه القصص حياة هو العرض العبقرى الذي عرضها به شيكسبير والذي كساها بثوب نفيس من الشعر وجعل أشخاصها على اختلافهم ، رجالاً ونساء ، يبدوون أحياء . وما من أحد يستطيع أن يقول أن شيكسبير كتب تلك المسرحيات لأنه استمد المادة من بلوتارك . إذ لو كانت قراءة هذا الكتاب وحدها كافية لكتابة هذا النوع الراقى من المسرحيات ، لاستطاع كثيرون غيره أن ينالوا ما ناله من حظ عظيم . ولكننا نجد أن عبقرية شيكسبير التي لا تضاهى هي وحدها التي أكسبته هذا المقام الفريد في تاريخ الأدب المسرحي ، فالجمال الحقيقي في

(١) Maclver المصدر السابق ، ص ٥٦٤ .

(٢) Sir Thomas North

(٣) Bishop Amyot

(٤) Plutarch's Lives

مسرحياته ليس في القصة ، وإنما في طريقة بناء المشكلة (١) ، وهو من أجل بلوغ هذا القصد ينتخب بدقة أهم التفاصيل ويبعد كل ما ليس له أثر في تكوين الانطباع الكلي. وهكذا نرى أن ذكا، شيكسبير هو الذي صور طينة مادة مسرحياته أرواحاً حية ، وموهبته العقلية هي التي حولت المعدن الرخيص ذهباً خالصاً .

وكذلك الأمر في عالم الأحياء. إننا نتأثر بالبيئة المادية التي نعيش فيها ، إلا أن فكرنا هو الذي يعلمنا أن نغير هذه البيئة المادية لكي تلائم أغراضنا المختلفة. إن العالم المادي لا يقرر وعينا وإنما وعينا هو الذي يقرر الوجه الذي سنستخدم فيه مواردنا المادية . فكل شيء يجب أن يكون موجوداً في الفكر قبل أن يمكن وجوده في العمل . لذا أقوى الإنتاج لا تصنع نفسها ، وإنما يصنعها عقل الإنسان. فبالرغم من أن الإنسان يتأثر بالحياة المادية المحيطة به ، لا يمكن اعتباره مجرد عجينه لا شكل لها تصب في قوالب البيئات المادية، إذ أنه يستطيع أن يغير بيئته.

إن كارل فيدرن يلاحظ ملاحظة بارعة فيقول : « إن قوى الإنتاج وظروف الإنتاج تؤثر دائماً على بعضها ويقرر بعضها بعضاً .. كما أن اختراع أسلحة جديدة يؤثر في الحروب ويحدد نتيجتها ، والحروب تؤدي دائماً إلى اختراع أسلحة جديدة

وأشكال جديدة من التنظيم العسكري ، ومع ذلك فلن يزعم إلا نخبول أن تطور الأسلحة وتنظيم الجيش هو سبب الحرب والعامل الأساسي في التاريخ العسكري ، (١) .

إن ادعاء ماركس بشأن الفكرة المادية عن التاريخ خاطيء إلى درجة أن إنجلز (٢) ، وهو أوثق تلاميذ ماركس ، شعر بضعفها وقلل من حدة تعبيرها الجازم بقوله : إن الفكرة المادية عن التاريخ تقول : إن عامل التقرير في التاريخ هو في النهاية الإنتاج وإعادة الإنتاج في الحياة الواقعية ، وما ادعى ماركس ولا ادعيت أنا أكثر من هذا . لذا فإن حَرْفَ شخص ما هذا القول إلى الادعاء بأن العامل الاقتصادي هو وحده المقرر فإنه يحوله إلى كلام لا معنى له ولا علاقة له بالواقع وغير معقول . إن الوضع الاقتصادي هو الأساس ، ولكن العناصر المتعددة للبنيان الذي يشاد عليه ، والأشكال السياسية للصراع الطبقي ونتائجه ، والنظام الذي تقيمه الطبقة المنتصرة بعد انتصارها في المعركة ، وما سوى ذلك ، وأشكال القانون ، وبعد ذلك حق انعكاسات كل هذه الممارك الحقيقية في أذهان المتحاربين ، والنظريات السياسية والقانونية والفلسفية والأفكار الدينية وما أصابها من نمو مع أنظمة المذاهب والعقائد ، كل ذلك يؤثر أيضاً على مجرى

(١) Karl Federn المصدر السابق ص ٢٢ .

(٢) Engels

الكفاح التاريخي .. وفي كثير من الأحوال يكون له الغلبة في تعيين شكلها . إن هذه العوامل يعمل بعضها في بعض ، وفي عملها هذا فإنها - وسط حشود الحوادث جميعاً - تؤكد الحركة الاقتصادية على أنها ضرورية ، (١) .

إن قراءة دقيقة للفقرة التي أوردناها آنفاً كفيّة بأن تكشف لنا أن الموقف الذي وقفه أنجلز يختلف عن موقف أستاذه . فهو يخبرنا بأنه بالرغم من أن العامل الاقتصادي ضروري ، فإن عناصر أخرى متعددة تدخل أيضاً في عملية تكوين الأشكال الاجتماعية . بيد أن دعوى ماركس تختلف عن هذا ، فهو يعتقد بأن الوضع الاقتصادي يقرر طبيعة العوامل الأخرى التي تدخل في تكوين المجتمع . لذا فإن ماركس يعتبر كل جوانب الحياة الإنسانية أموراً ثانوية تنتج عن الحاجات الاقتصادية ، أما أنجلز فيعتقد أن أهم العناصر المختلفة كلها هو الحاجة الاقتصادية . إن بين هاتين النظريتين إختلافاً هائلاً .

من حسن حظ البشرية أن أخطاء الماركسية تنجلي الآن أكثر فأكثر بمرور الزمن . فقد رفض نظرتة المادية للتاريخ حتى أشد الناس احتراماً له . خذ مثلاً بروفيسور ج. د. ه. كول (٢) فإنه يرفض أن يعترف بالعامل الاقتصادي على أنه العامل الوحيد

(١) Karl Marx المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٢١ .

(٢) Professor G. D. H. Cole

الذي يقرر الكيان الاجتماعي لأية أمة ، ويقول في كتابه (معنى الماركسية) : « من السهل أن نتبع التشابه الكبير بين الهياكل الاقتصادية التي تبني عليها أنواع المجتمعات المختلفة وتنظيمها السياسي وأجهزتها الاجتماعية ، وأن نرى كيف كُتِفَت الهياكل السياسية والاجتماعية في الماضي وفقاً لتغير الظروف الاقتصادية الأساسية . إلا أن التأكيد على هذا إلى حد مفرط في البعد أمر خطير . فليس حتماً أن تكون المجتمعات التي في مستوى واحد من حيث أسلوب الإنتاج متماثلة في الأنظمة أو الأشكال الاجتماعية للعائلة والعلاقات الجماعية ، والمنظمات السياسية والدينية ، أو الأفكار الخاصة بالقيم والأخلاق . فلقد أظهرت بحوث علم الإنسان ^(١) أشكالاً حضارية مختلفة جداً ، لا يمكن قط أن تفسر تفسيراً اقتصادياً محضاً . إن أقصى ما يثبتته هذا التشابه الذي تبين لنا وجوده ، إنما هو مجرد الاقتناع بأن الأنظمة الاجتماعية تتأثر بالظروف الاقتصادية — لا أنها تتمين بها وحدها . إن الأساس الاقتصادي للمجتمع عامل واحد فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة ، حتى ولو كان أهم عامل ^(٢) .

ما أشد اختلاف هذا عن ما قاله ماركس ! فقد قال ماركس :
« يجب أن لا نبحث عن الأسباب النهائية لكل تغير اجتماعي

(١) Anthropology

(٢) Professor G. D. H. Cole , The Meaning of Marxism, P. 57

وثورة سياسية تحصل في عقول الناس في النظرة الخيرة العميقة في الحقيقة والعدالة الأزليتين ، بل يجب أن نبحث عنها في التغير الذي يحصل في أساليب الإنتاج وحدها . لذا فإن ما يراه ماركس هو أن الاقتصاد وحده يمدنا بسبب التغير . وبناء عليه فالقن والدين والقانون وما سوى ذلك لا وزن لها في صياغة الظروف الاقتصادية ، بل هي نفسها نتيجة هذه الظروف . ويعترف بروفيسور (كول) بتأثير عوامل أخرى كثيرة فضلاً عن عامل الاقتصاد .

يرى ماركس أن كل الجوانب المختلفة من حياة البشر ، إنما تصوغها الظروف الاقتصادية التي تكتنف حقبة ما ، وبذلك فهي مدينة بوجودها تماماً إلى العوامل الاقتصادية . غير أن (كول) يعتقد أن العوامل الأخرى مستقلة عن الظروف الاقتصادية . إنه لمن دواعي الثناء على ماركس أنه بفضل مهارته استفاد من الألفاظ والمعارف ذات المعاني المتعددة التي يمكن أن تفسر بأية طريقة وفقاً لضرورات الزمن . ومن هذه الألفاظ « تطور قوى الإنتاج » . يقول ماركس : « إن ظروف الإنتاج تتفق مع مرحلة تطور قوى الإنتاج المادية » . فالسؤال الذي يرد في ذهن المرء الآن طبعاً هو : ما هي اللحظة الحاسمة في التطور ؟ أهى المرحلة الأولى حين يتم اختراع أو اكتشاف ما ، أم الوقت الذي يوضع فيه هذا الاختراع أو الاكتشاف موضع الاستخدام والاستفادة ويحرب ، أم الوقت الذي تصبح فيه

فائدته عامة وتأثيره ظاهراً في المجتمع؟ إن كتابات ماركس تبين أن الفكرة التي كانت في ذهنه هي أنه الوقت الذي يكون فيه استخدام القوى الجديدة كثيراً جداً والمجتمع قد تأثر بها إلى حد كبير ، إذ أن المرء لا يستطيع أن يتحدث عن التطور الاجتماعي في ذلك الحين . يتفق الماركسيون جميعاً على أن تطوراً ما في ظروف الإنتاج يجب أن يحدث قبل أن يمكن المجيء بقوة إنتاج جديدة من نوع جديد تماماً . من المستحيل أن تجعل أي اختراع جديد كثير الاستعمال وشائعاً دون أن تجمع رأس المال الضروري وتقوم بالتدريب الصحيح وتغيير الأذواق والميول لقبول هذا التغيير ، وإلا أخفقت كل الجهود لجعل الاختراع شائعاً. هذه هي السبيل الطبيعية التي تتخذها الاختراعات . وهذا الطريق يمثل تحدياً لنظرية ماركس ، إذ أنه ليس ظرف الإنتاج هو الذي نجده يعتمد على تطور قوى الإنتاج ، وإنما قوى الإنتاج هي التي يقرها تطور ما في ظروف الإنتاج ، ما أشد هذا التعريف للحقيقة !

لقد حرف ماركس كثيراً من الحقائق ، كما فعل هيجل^(١) وشبنغلر^(٢) ، وتجاهل بعض الحوادث المهمة في التاريخ التي لم تؤيد ما ذهب إليه من أجل أن يجعل نظريته تبدو مستساغة .

(١) Hegel

(٢) Spengler

ولأجل أن يثبت أن نظرياته صحيحة استخدم الحوادث التي وقعت في « الأغوار البعيدة من الزمن » مما لا يمكن التعرض عنه شيء أكيد، ومما يمكن أن يفسره المرء بسهولة أي تفسير يشاء . ثم أنه يصعب ، بل يستحيل ، الوصول إلى أية حقيقة على أساس هذه الحوادث التي وقعت قبل التاريخ ، فهي منقطعة بحجاب كثيف من الزمن ، ولكن ماركس وأنجلز بنيا كل بحوثها عليها . فانتخبا مقداراً لا بأس به من دراسات مورغان ^(١) عن قبائل إروكوى ^(٢) وكتاب جورج لودفيغ فون ماورر عن العادات البلدية وعادات الأراضي الزراعية عند قدامى الألمان ^(٣) . وهذان الكتابان يبحثان كيف كانت الحال في عهد ما قبل التاريخ . إن فيها مما يدعو إلى التفكير أشياء أكثر من مجرد الحقائق الجامدة . فكل شيء غامض ومغطى بالضباب . فالمرء يستطيع أن يثبت أي شيء ويبرهن على أي شيء بواسطة المادة المعطاة فيها . فهي يمكن أن 'تُحرَفَ' بسهولة لأجل الوصول إلى نتائج كانت في الذهن بادية الأمر . وما نحن نأتي بمثال واحد لنوضح كيف 'تُحرَفُ' الحقائق بشكل فظيع .

مثال مقتبس من ما كتبه كيونو ^(٤) ، وهو مفسر مشهور

Morgan (١)

Studies of Iroquois (٢)

George Ludwig von Maurer ' s Work on the Municipal and Agrarian Customs of the Ancient Germans. (٣)

Cunow (٤)

لنظرية ماركس . إنه يقول : « إن القبائل الرجل والتي تعيش على الصيد تنظر إلى المرأة نظرة احتقار لأن المرأة لا فائدة منها في الصيد وتربية الماشية وغير لائقة بدنياً للقتال الذي تكون هذه الشعوب المقاتلة مشتبكة فيه دائماً . ولكن لما أخذ الشعب بالزراعة وأصبحت الزراعة عملاً مهماً في المجتمع ، ارتفع مركز المرأة أيضاً في ميزان التقدير ، وأخذ الرجال ينظرون إليها من زاوية ناعمة لا خشونة فيها ، فأخذوا ينظرون إليها باحترام وتقدير . إن السبب الأكبر لهذا التغير الجذري سبب اقتصادي محض . فبما أن المرأة أصبحت ذات فائدة للناس في نواح عديدة في غرس الأشجار وبذر البذور وجني الثمار ، مثلاً ، ارتفعت مكانتها . أيمن أن يكون شيء ما أكثر غرابة من هذا ؟ إذ أننا أولاً لا يمكننا أن نجزم بأن المرأة كانت تحقر عند كل قبائل العالم . ففي الهند كانت المرأة دائماً موضع احترام كبير . وثانياً إن بين ما هو مسجل لدينا أن شعوباً عديدة كانت رغم كونها زراعية لا تحترم نساءها . وعند الرومان ، وكذلك عند قدامى الألمان ، كان مركزها القانوني ، على الأقل ، مركز العبد (١) . ويستنتج مما قرره (كيونو) أنه بما أن المرأة مفيدة في الزراعة فهي تحظى بالاحترام . أي أن الاحترام هو لعملها . ولكن ما أشد خطأ هذه النتيجة ! لقد أصاب (كارل فيدرن) حين قال :

(١) Karl Federn ، المصدر السابق ، ص ٥٤ .

« وحق لو صرفنا النظر عن كل هذه الحقائق التي تثبت عكس ذلك فإن الفكرة التي تزعم أنه بما أن المرأة قد عملت في الحقول فيجب أن تكون قد نالت الاحترام وأعطيت مركزاً قيادياً في المجتمع ، هي نفسها فكرة غريبة مضحكة . فحق وأين سجل التاريخ ، أن العمل وحده قد قاد إلى مركز كريم وإلى القوة والسلطة ؟ وحق في وقتنا هذا ، فإن الكرامة والشرف اللذين يعطيان له محدودان جداً ، فهما موجودان بصورة عامة في الكلمات أكثر من الحقيقة . ففي كل الأوقات كان العمل يفرض على المرأة وعلى الضعفاء ومن لا شأن لهم . لقد كان العمل مفيداً للغاية ، ولكنه لم يكن موضع تكريم . بل كان المكرمون هم الأقوياء الذين يسرقون ما ينتجه العمال . إن الماركسيين يعلمون هذا طبعاً حق العلم ، بل إنهم ليؤكدون عليه تأكيداً شديداً . فكيف إذن يستطيعون أن يزعموا أن العمل الزراعي الذي قامت به المرأة جعلها تنال السلطة والقوة ؟ إنهم لا يستطيعون أن يقرروا الأمرين المتناقضين ، .

إن حال المرأة لم يتحسن لمجرد أن العالم خرج من مرحلة الصيد إلى مرحلة الزراعة . إنما تحسن بالحركات الدينية التي قادها الأنبياء في الحقب المختلفة من تاريخ البشر . فالاعتقاد المسيحي بأن الروح الخالدة التي في الإنسان ، هي النفس الحقيقية الدائمة التي قد كتب لها أن تعيش الحياة الأبدية . هذا الاعتقاد غير تقدير قيمة النفس الحقيقية للمرأة ، فجعل روحها كروح الرجل

لا يمكن أن تثنى، وبذلك حاول المسيح أن يحسن حالها . ومع ضعف هذه الحركة ضعف شأن المرأة فصار شأنها -حق في بيت أبيها - شأن الخادم . وكان أبوها يستطيع أن يبيعها إذا كانت دون سن الرشد ، وإذا مات أبوها كان للأبناء أن يتصرفوا بها كما يشاؤون وتهوى أنفسهم . ولم تكن البنت تراث شيئاً إلا حين لا يكون وارث من الذكور .

وما أن ظهر الإسلام حتى رفع شأنها الاجتماعي مرة أخرى، معلناً نداء الله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً .
(النساء : ١)

هذه الآية وثيقة عظمى للمساواة والكرامة للمرأة . لقد كانت رسالة عظيمة لتحرير المرأة وإطلاقها من أسارها ، ولرفع مستوى كرامتها وحقوقها بشكل مدهش ، حتى ليستحيل أن يخطر ببال إنسان أي شيء أرفع أو أسمى . لقد ضمن الإسلام للمرأة حقوقاً لم تكن قد نالتها من قبل ، وسأوى بينها وبين الرجل مساواة تامة في الحقوق والواجبات القانونية جميعاً .

كانت هذه الحركة الدينية أشد القوى دفعاً ، فقد أحدثت ثورة شاملة في وضع المرأة الاجتماعي ومكانتها . فهل يستطيع أحد بعد أمام هذه الحقائق ، أن يزعم أن كل هذا ، إنما كان لعوامل اقتصادية ؟ ولعل قائل يقول : إن هذه الأوامر الدينية

نفسها نتيجة للبيئة المادية ، وإن العوامل الاقتصادية وحدها هي التي ولدت هذه الأديان ، ولذلك لم يكن ما جاءت به الأديان وحياً من عند الله إلى الأنبياء ، وإنما كان من متطلبات الزمن في ما يتعلق بالضرورة الاقتصادية ، غير أن الناس البسطاء قد ضلُّوا فاعتبروها هدى من الله . لقد عبر عن هذه الأفكار فريدريك إنجلز في كتابه (ضد دهرنك) ، فقال : « ليس الدين سوى انعكاس خيالي وهمي في أذهان الناس من القوى الخارجية التي تسيطر على حياتهم اليومية ، وهو انعكاس تتخذ فيه قوى هذا العالم شكل قوى فوق المادة » (١) .

ولكن أفكار ماركس لا تدعمها حقائق التاريخ ، فإذا كانت أساليب الإنتاج تعتبر حقاً القواعد الحقيقية التي تقرر كل البنيان الذي يشاد عليها ، والدين جزء من هذا البنيان ، فسنضطر إلى أن نصل إلى أن تماثل أسلوب الإنتاج يجب أن يؤدي إلى تماثل الحركات الروحية والنظم التي ينتجها .

ولكن الأمور في العالم تختلف تماماً . فنحن نجد أن مئة دين ودين تعيش كلها متجاورة في ظروف اقتصادية واحدة . فلو كان الدين مجرد انعكاس للظروف المادية التي يعيش فيها الناس لما وجد أكثر من دين واحد في وقت واحد . ولكننا نجد أن الإسلام والمسيحية والهندوكية وعشرات الأديان الأخرى تسيطر

(١) Anti - Duhring , P. 353

على عقول ناس يعيشون في ظروف إقتصادية واحدة . لقد عاش الهندوس والمسلمون في ظروف إقتصادية واحدة يسودها نوع واحد من أساليب الإنتاج مئات السنين ، ولكن هذه القوى ، مع كل قوتها ، أخفقت في أن تصهر هذه الطوائف في كتلة واحدة . فهم اليوم مختلفون اختلافاً كبيراً في الدين كما كانوا مختلفين قبل آلاف السنين .

إن النظرة المادية للتاريخ تقتضي أن الظروف المادية في الهند كان يجب أن تولد ديناً واحداً يبتهج الهندوس والمسلمون باتباعه ، وبذلك يتركون العهد الذي كانوا يعيشون فيه طائفتين مختلفتين . وكذلك الأمر في الأنظمة الأخرى والأخلاق . إن صحائف التاريخ ملأى بالبراهمين على أن الأنظمة المختلفة نمت حتى في أحضان بيئة مادية واحدة . إن الرومان ، وكذلك المسلمون الأولون ، هم في التقسيم الماركسي المعالوم للعهود التاريخية ، ينتمون إلى مجتمع الرقيق ، أي أن البنيان الإقتصادي للمجتمع الروماني ، وكذلك البنيان الإقتصادي للمجتمع الإسلامي الأول كانا يرتكزان على قاعدة الاسترقاق . وكلاهما كان يستخدم وسائل إنتاج متائلة ، وكانت أساليب التوزيع نفسها تقريباً . وطبيعي إن على المرء ، حسب النظرية الماركسية ، أن يستنتج أن نظام الرق في فترة امتلاك العبيد ، يجب أن يكون نفسه في كلا المجتمعين . وكذلك يجب أن تكون نظرة السادة الرومان والسادة المسلمين نحو عبيدهم متشابهة . ولكن هذا هو التاريخ

ينقل لنا أن وضع العبيد عند الرومان كان يدعو إلى الرثاء إلى حد بعيد . « كان العبيد ، سواء من كان منهم من أهل البلاد أم من الأجانب ، من أسر في الحرب أو اشترى بالمال ، كانوا كلهم يعتبرون مجرد أثاث . فقد كان لسادتهم أن يقوم أحياء أو يقتلهم . وكان كل نبيل من نبلاء الامبراطورية يملك آلاف العبيد ، وكانوا يعذبون أنواع العذاب الذي لا يوصف ، ويجلدون جلدًا لا رحمة فيه حتى إذا كان الذنب بالغ التفاهة ، . إنهم في الحقيقة لم يكونوا يعيشون ، وإنما يتنفسون ، وكانت أنفاسهم مجرد تنهدات . لقد كانت الحياة عبثًا عليهم . أما معاملة العبيد عند المسلمين (الذين كانوا يعيشون في تلك المرحلة نفسها من مراحل التطور الإقتصادي) فكانت تختلف تمامًا ، إذ كانت تمتاز على معاملة الرومانيين للعبيد امتيازاً لا حدود له أبداً . فقد سمح الرسول الكريم للأرقاء أن يشتروا حريتهم بالأجور التي يتقاضونها عن أعمالهم . وكذلك قال بتسليف مبالغ من المال للعبيد من بيت المال ليشتروا حريتهم . ووضع واجب الإحسان إلى العبد في منزلة صلة ذوي القربى والجار ورفيق السفر وعابري السبيل ^(١) . وشجع على عتق الرقيق إلى أقصى حد ، وإعطائهم

(١) يشير إلى قوله تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) .
النساء - ٣٦

مع العتق شيئاً من المال الذي أعطاه الله للمسلمين ، وحرم أن يستغل السادة سلطتهم على إمامهم فيكرهوه من على البغاء ، ووعد بأن يسبغ رحمته على من يقع عليها الإكراه . وحرم على السادة أن يكلفوا عبيدهم بأكثر مما هو معقول وعادل . ثم إنهم أمروا بأن لا يخاطبوا عبيدهم أو إماءهم بكلمات تغض من مكائنتهم ، بل بالإسم المليء بالعطف (فتاي وفتاوي) . كذلك كان الأمر بأن 'يَلْبَسَ العبيد وَيُطْعَمُوا مثل ساداتهم وسيداتهن تماماً . وفوق كل ذلك ، كان الأمر ألا تفصل أم عن وليدها ولا أخ عن أخيه ولا والد عن ولده ولا زوج عن إمرأته ولا قريب عن قريبه (١) .

ما أكبر الفارق بين نظرة الرومان ونظرة المسلمين نحو عبيدهم! هذا لغز لا يستطيع الماركسيون قط أن يحلوه بنظريتهم يقول إنجلز في رسالة له إلى فرانتس ميرنج : « إن صورة الحقبة الزمنية ، كما تنعكس في عقل الإنسان ، يعينها شكل الإقتصاد والظروف الاجتماعية التي تنتج عنه . وهذه الصورة المنعكسة تكون بيئة عقلية تعمل كوسط يتكوّن من أفكار ومشاعر ، يتلقى فيه (٢) الإنسان — حسب مركزه الاجتماعي — انطباعاته ومشاعره وآراءه (٣) . إلا أن الظروف الحقيقية في العالم تختلف

(١) Syed Amir Ali, The Spirit of Islam , 263 - 4

(٢) أي في هذا الوسط .

(٣) Letter to Franz Mehring , Jan , 25 , 1894

كثيراً . فنحن نواجه كل يوم أناساً ، هم على كونهم من طبقة واحدة ومجموعة واحدة ، بل وأسرة واحدة ، ذوو آراء تختلف تماماً . وليس الأفراد وحدهم ينمون على خطوط مختلفة تمام الاختلاف ، بل حتى المدنات . إن أسلوب الإنتاج عند أمم كثيرة العدد كان مشابهاً كل الشبه لما كان عند الإغريق ، ومع ذلك لم يُنتج أحد منها فناً ولا مدنية يمكن أن تقارن قط بفن الإغريق أو مدنياتهم . لقد انبثقت مدنية مايا^(١) وسط وابل الأمطار الإستوائية وخضرة غواتيمالا وهندوراس البريطانية ،

(١) مايا Maya كلمة تطلق على الهندي الذي ينتمي إلى أوسع وأهم قبائل الماياوين التي تكون أغلبية كبيرة من سكان شبه جزيرة يوكاتان Yucatan شمال غواتيمالا وهندوراس البريطانية . كان المايايون من أرقى هنود أمريكا مدنية . فكانوا أول شعب هندي ابتكر أسلوب الكتابة الهيروغليفية وأنتج الورق والكتب . كان تقويمهم المعقد يعتمد على الملاحظة الفلكية . وتحتوي أنقاص مدنها على معابد وقصور ذات تصاميم تسدل على المهارة ونقوش زاهية . أما معرفتنا بتاريخهم السياسي فقليلة . ويبدو أن هذه القبائل قد حصلت على درجة ما من الوحدة السياسية ، لا سيما في القسم الأوسط والجنوبي الشرقي من إقليمهم ، في الفترة التي تقع بين ٢٠٠ و ٦٠٠ تقريباً بعد الميلاد ، والمعروف بالامبراطورية القديمة ، أما الامبراطورية الجديدة ، فقد تركزت تقريباً في يوكاتان . وتبعها فترة نزاع على الزعامة بين دول الولايات في الشمال ، وظهر الكاكشيكين Cakchikels والكويشين Quichos في غواتيمالا ، ونشوب حروب مع التولتيكين Toltecs وبعدهم مع الازتيكين Aztecs دامت حتى تغلب الأسبان على أكبر القبائل والمدن في القرن السادس عشر . أما يوكاتان : شبه جزيرة تقع جنوب شرق المكسيك .

ولكن لم تنبثق حضارة كهذه عن وحشية ، وفي ظروف تشبه الظروف على الأمزون والكونغو — كيف يفستر الماركسيون هذا ؟ إن تأثير البيئة الاقتصادية على الأفراد وتأثيرها بواسطتهم على المجتمع حقيقة لا يستطيع أحد نكرانها . غير أن ردّ الفعل عند الأفراد يختلف اختلافاً كبيراً بين واحد وآخر . وهذا يعتمد على شخصيات الأفراد والبنیان الأخلاقي للمجتمع الذي يعيشون فيه . وليس يعوزنا أمثلة تساندنا في أنه من عائلة ذات رجال أغنياء ظهرت جذوة العاملين الاشتراكيين الذين أخذوا على عاتقهم قضية الفقراء وتحمسوا لها كثيراً ، ولم يترددوا حتى في أن يضضحوا بحياتهم الغالية من أجل قضيتهم ، ولو أن الطريق الذي كان العقل يقضي بأن يسلكوه هو أن يجمعوا كل أغنياء البلاد ويقضوا بعزم قضاء مبرماً على أية حركة تقوم لتهاجم مصلحتهم الثابتة التي لا شك فيها . لقد أثار كارل فيدرن ملاحظة مهمة جداً حين قال : « إن ظهور هؤلاء الرجال الذين فتحوا لجيلهم جوانب جديدة في التفكير أو الذين قادوا جيلهم في بعض المواقف الدقيقة ليس قط مرتبطاً أو معتمداً على ظروف الإنتاج فلماذا أراد أحد أن يقول إن تطور قوى الإنتاج ، وظروف الإنتاج الموجودة هي سبب ولادة أمثال (كانت) ^(١) و(نيوتن) ^(٢) »

Kant (١)

Newton (٢)

و (روسو) ^(١) و (ميرابو) ^(٢) و (غوتة) ^(٣) و (نابليون) ^(٤) من الرجال الذين امتد تأثيرهم إلى قسم كبير من الأرض ودام وسيدوم زمناً لا يعرف مداه ، فإن عليه أن يبرهن ويوضح لماذا وكيف سببت ظروف الإنتاج مولد هؤلاء الرجال في ذلك الوقت بالذات ، وإلا كان ادعاؤه كلاماً باطلاً لا يعدو أن يكون قد جاء به اعتباطاً ^(٥) .

ولهذه النظرية جانب آخر . فنحن إذا فرضنا أن الأخلاق في عصر ما مجرد انعكاس لأسلوب الإنتاج الذي يعيش فيه جماعة من الناس نتج من ذلك أن الأخلاق في كل حقبة تاريخية قالية ، لا بد أن تكون حتماً أسمى من أخلاق العصر الذي سبقها ، لأننا قد علمنا من ماركس أن النظام الإقتصادي الذي يوجد في حقبة معينة من التاريخ يحل محله دائماً نظام أرفع لأن قوى الإنتاج الجديدة المتولدة فيه قد نجحت في هدمه . وبما أن النظام الإقتصادي الجديد الناشئ من القديم هو بصورة عامة نقدي ، وبصور درجة أرفع من العدالة الإجتماعية ، فالواضح أنه يجب أن يأتي معه بأخلاق أسمى . لو كان التاريخ سجلاً لتقدم

Rousseau (١)

Mirabeau (٢)

Goethe (٣)

Napoleon (٤)

Karl Federn (٥) المصدر السابق ، ص ٩٦ - ٩٧ .

مستمر من جميع نواحيه لكان هذا حسناً . ولكنه بالمقدار نفسه سجل " لفساد وانحطاط . ورغم الخطوات الواسعة الهائلة التي استطاع الإنسان الحديث أن يخطوها في تسخير قوى الطبيعة لخدمة حاجاته المادية ، ورغم التقدم الذي يحرزه العلم كل يوم في شكل اختراعات لا تخطر للإنسان في الخيال ، فإن الأخلاق عند عامة الناس ليست بخير أبداً فهم قساة وأنانيون وفاسدون . ويعترف (جود) ^(١) بذلك صراحة إذ يقول : « لقد أعطانا العلم قوى تليق بآلهة ، ونحن نجلب لاستخدامها عقليات صبيان ووحوش .. أنظر إلى الطائرة التي يدوي صوتها وهي تخترق السماء الصافية في الصيف ، لقد تظافرت في صنعها معرفة الإنسان بالرياضيات وعلم الحركة والآليات ، ومعرفته بالكهرباء والاحتراق الداخلي وعبقريته في تطبيق المعرفة ، ومهارته في صنع الخشب والمعادن ، وهي جميعاً توحي بأن مستوى مخترعها فوق مستوى البشر . ثم إن الجرأة والعزم والشجاعة التي أبداهما الطيارون الأوائل كانت صفات أبطال . أما الآن فانظر إلى الغرض الذي من أجله استخدمت الطائرة الحديثة ، والذي يبدو أنها ستظل تستخدم من أجله بازدياد ، إنه « إلقاء القنابل التي تدمر وتخنق وتحرق وتسمم وتقطع أوصال أناس 'عزل' » ^(٢) .

(١) Joad

A Guide to Modern Wickedness , pp. 262 - 263.

(٢)

فإذا كانت الأخلاق إنعكاساً لأسلوب الإنتاج ، فقد كان يجب أن تكون أخلاق زماننا هذا أسمى الأخلاق . إن أساس هذا الوهم الذي وقع فيه ماركس وأتباعه ، أنهم لم يفرقوا بين تقدم الفن الآلي والتقدم الأخلاقي .

فإن بين الوعي الأخلاقي والوعي العقلي عند الإنسان فرقاً هائلاً . ويرجع أصل هذا الخطأ إلى دارون الذي أكد على فكرة بقاء الأصلح في عملية التطور . ومن هذه الفكرة استنتج ماركس خطأ أن التطور الإجتماعي كان في الحقيقة تقدماً إجتماعياً . وفضلاً عن ذلك ، كان التقدم السريع في علم الفنون الصناعية ، وفي الصناعة في القرن التاسع عشر أمراً آخر جعله يعتقد بأن التيارات الرئيسة للظواهر الإجتماعية كانت كلها تؤدي إلى التقدم الإجتماعي ولكن الأخلاق ليست انتصاراً على الزمان والمكان ، بل على أهواء المرء . لذا فهي أمر يتعلق بالإرادة وبتوجيه النفس في تلبية متطلبات قانون أسمى . لذا فهي تتقدم وتتأخر وفق إرادة الناس ، فقد تصل في وقت ما إلى الذروة ، ثم تتردى في ما بعد إلى الحضيض . إن ذلك يعتمد اعتماداً تاماً على اختيار الناس الذين لهم استعداد لكي يوجهوا حياتهم وفقاً لمقاييس أخلاقية معينة . وهذا يوجب أن تتبعه تضحية اختيارية منهم . لا يستطيع أحد أن ينكر أن المسلمين الأولين بلغوا بقيادة الرسول الكريم والخلفاء الراشدين الأربعة ذرى سامية من الأخلاق لم يصل إليها العالم الإسلامي بعدهم أبداً . كان المجتمع في زمانهم ذا نظام تام ،

فكان كل امرئ يغار على حقوق غيره ، فلم يكن استغلال اقتصادي ، ولم يكن تمييز في اللون ولا عصبية لعنصر . كان المسلمون الأولون دائماً أتقياء ملتزمين بدينهم في أعمالهم ، لا تفارقهم خشية الله ولا الاخلاص لدينهم . كانوا دائماً مستمسكين بالمبادئ السامية التي علمهم إياها محمد ﷺ لا يتخلون عنها في السلم والحرب ، وفي الخيام والمسكرات . ولكن لما أقام الأمويون حكم الفرد انخفض مستوى الاخلاق عند الشعب ، فلم يبق الأمراء الأمويون رؤساء لدولة كبيرة يحكون لمجرد إسعاد الناس ورفع شأن الدين ، وأخذ الشرف والاستقامة يذوبان ، وبدأت الشهوة النهمية إلى الحكم تنخر مقومات حياة المجتمع . فذبح الناس وانتهكت حرمان النساء واسترق الأطفال . ثم لما جاء إلى الحكم عمر بن عبد العزيز ارتفع التيار ، فلقد كان أميراً فاضلاً وحاكماً صالحاً ومسلماً تقياً يخاف الله فلم يدخر جهداً في جعل حياته الشخصية وحياته رعيته من المسلمين كحياة المؤمنين الأولين . وحين جاء العباسيون إلى الحكم ساءت الأخلاق مرة أخرى بالرغم من أن استبداد هؤلاء الحكام ساعد على ازدهار العقلي والرفاهية المادية للأمة الإسلامية . لقد كان ما حققه المسلمون عقلياً يمثل دون شك تقدماً كبيراً ، ومع ذلك فقد كانت الأخلاق تنحط .

إن المدنية التي تمثل التقدم المادي تتقدم دائماً في سيرها بشرط ألا تحدث كارثة تقطع السير الاجتماعي المتصل . وفي

العادة تبدأ مدنية جديدة من حيث انتهت المدنية السابقة . وهي تبني كيانها على أسس المدنية القديمة وتستفيد فائدة تامة مما سبق إنجازه . « ومع اتساع مناطق المدنية وبالأساليب الراقية لتسجيل الاختراعات ، يصبح أي مكسب فني علمي أو ذي علاقة بالمنفعة العامة ملكاً دائماً ضمن التراث الإجتماعي ، وشرطاً يعتمد عليه الحصول على المزيد من المكاسب » . ولكن أمر الحضارة يختلف عن هذا ، فهي تمثل كيان الشعب العقلي ، وطريقته الخاصة في النظر إلى الأشياء وتقويمه لحوادث العالم . وبما أن جذرها مغروس في فكر الإنسان ، فليس أكيداً أنها تسير نحو ما هو أرقى أو أحسن . يقول ماك إيفر^(١) : « وما زالت السيارة منذ أن اخترعها الإنسان في تحسن دائم ، وما زالت وسائل النقل تزداد سرعة ومقدرة . فهي أحسن وأرقى بكثير من وسائل النقل التي استخدمها الإغريق » .

ولكن هل نستطيع أن نقول الشيء نفسه عن معاملاتنا مع الناس ؟ ليس لدينا ما نبرهن به على ذلك . فإذا كانت المحركات البخارية اليوم أحسن من حيث المقدرة من المحرك الذي كان أيام مخترع المحرك البخاري ، فليس شرطاً أن تكون معاملاتنا مع الناس اليوم أحسن أيضاً . « إن الحضارة لا تسير سيراً منتظماً إلى الأمام فهي معرضة للتقهقر كما هي معرضة للتقدم . وأن

(١) Mac Iver ، المصدر السابق ، ص ٥٥٠ .

ماضيها لا يضمن لها مستقبلها .

وإن ماركس ، بالرغم من نتاجه العقلي الكبير ، لم يفرق بين المدنية والحضارة ، واستنتج خطأ من اعتقاده بأن كل نظام إقتصادي يمثل تقدماً بالنسبة للنظام الذي سبقه ، أن هذا النظام سيجلب معه أيضاً أخلاقاً أسوأ مما كان في ظل النظام الإقتصادي السابق .

ولكن سجلات التاريخ ترفض هذه النظرة رفضاً مطلقاً . ولعل حرص ماركس على أن يصور التاريخ ، على أنه علم دقيق هو الذي دعاه دائماً إلى أن يزعم أن المجتمع تحكمه قوانين صلبة فوق قوة البشر . ولأجل أن يصل إلى هذه الغاية سلك في تفكيره هذا المسلك وفسر كل الحوادث الكبرى على أساس التغير في أسلوب الإنتاج موحياً بذلك أن كل تقدير أساسي للقيم ، إنما هو مجرد نتاج ثانوي للظروف الفنية العلمية . وهذا يعني أن نظرة الإنسان تقرر هذه الأمور ولا إرادة له فيها . فإذا كان الأمر كذلك ، فمعناه أن الإنسان لن يكون مسؤولاً عن تصرفه ، لأنه وليد الظروف المادية التي يعيش فيها . ويقضي المنطق بناء على هذا أن كل أنواع الظلم والاستغلال والفجور لها ما يسوغها ، إذ أن هذه جميعاً نتائج لأساليب الإنتاج لا مفر منها . وهذا هو السبب في أن الشرف والصدق والعدل لا مكان لها في كيان الماركسية .

فإن هدف الشيوعيين الوحيد هو أن يدمروا أعداءهم . وأما

المشاكل الأخرى جميعاً فهي في نظرهم مجرد مشكلات علمية مبنية على ظروف افتراضية لم تتحقق في عالم الواقع ، وبذلك تكون خارج الموضوع . « إن وجود طبقة العمال (بروتاريا) في هذه الحياة هو مجرد أن يقوموا بالثورة . لذا فكل قوتهم وعزمهم واندفاعهم يتصف بالقسوة . وإن حركة العمال متحررة من أساطير الدين ومن الديمقراطية والأخلاق السامية التي هي كلها سلسلة صنعتها الطبقة المتوسطة (البورجوازية) للسيطرة على الطبقات الفقيرة واستعبادها . وما من شيء يمكن أن ينسب إلى الأخلاق إلا ما يمهّد للقضاء على الرأسمالية قضاءً تاماً نهائياً . والقانون الأعلى هو إزدهار الثورة ونجاحها » (١) .

إن فلسفة الحياة هذه إذ أبعدت كل المشاعر الرقيقة قد جعلت الإنسان وحشاً حقيقياً ، وأعطت الماركسيين مسوغاً لأن يكونوا « غير عاطفيين وقساة ومرتابين إلى حد ما في صدق إخلاص الناس وطيبة بواعثهم وأعمالهم ، رغم ما يدعونه (أي الماركسيين) من غرض سام نبيل . وبما أن تقدم المجتمع لا يأتي إلا بالتصادم والصراع الدامي ، فإن الخير النهائي لا يمكن أن يكون إلا للفريق المحق في المعركة » (٢) . وكل ما سوى ذلك مجرد نظريات وخداع . وهذا قد مكّن الاشتراكيين جميعاً من

Dr. Funk and Goebble

(١)

Max Eastman , Stalin' S Russia, P. 166

(٢)

أن يتمتعوا باسم العلم بكل امتيازات الذين يرون أنفسهم مستقيمين أخلاقياً في تصرفاتهم ، ومن أن يندفعوا باسم الفهم العقلي المنطقي في احتقارٍ وازدراءٍ مصدرهما التعصب والتعامل.

لقد بحث برتراند رسل آثار هذه الفلسفة في كتابه (الآمال الجديدة للعالم المتغير) ، فقال : « يعتقد ماركس ، كما يعلم كل امرئ ، أن صراع الطبقات كان دائماً أكبر أسباب التغير الاجتماعي وسيبقى كذلك حتى ينتصر أتباعه ، وبعد ذلك سيعيش الناس سعداء إلى الأبد ، في نهاية القصة الخرافية . إن ماركس نفسه لا يهتم بالعدالة ، ولكن بالاستياء والتدمير . وهو يقول أنه لا مفر من أن يكون الذين حرموا من الامتيازات مستائين ومن أن يكونوا أغلبية ، وبذلك يكون عدم الاستقرار والثورات وحرب الطبقات وما سواهما . وليس الباعث على كل هذه العملية في النظام مبدأ من مبادئ العدالة ، وإنما المبدأ السلبي المحض ... مبدأ الكراهية » (١) .

وفي النظرة المادية للتاريخ التي جاء بها كارل ماركس ناحية مهمة أخرى . فهو يعتقد أن الأفكار والاتجاهات في عصر ما ، إنما هي نتاج مرحلة التطور الإقتصادي التي تم الحصول إليها . ولذلك فلا قانون مطلقاً ولا أخلاق مطلقة في هذا العالم ، وإنما هذه كلها إنعكاسات لأسلوب الإنتاج . ولكن في هذه النظرة

(١) Bertrand Russel, The New Hopes for the Changing Worla, P. 286

تناقضاً خطيراً فهو من ناحية لا يرى شيئاً أبدياً ، ومن ناحية أخرى يعرض فكرته عن التاريخ على أنها مطلقة . وهذا تناقض لم يستطع أحد من تلامذة ماركس أن يزيله . فنحن إذا اعتقدنا أن فلسفة عصر ما ، ناتجة عن البيئة المادية له كان هذا الاعتقاد منطبقاً أيضاً على الماركسية نفسها ، فأفكار ماركس لا يمكن أن تكون صحيحة ومنطبقة على كل الأزمنة لأنها (أي أفكاره) هي أيضاً إنعكاس للعصر الذي عاش فيه . فلا بد أنه قد كان في ذهنه ظروف المجتمع في ذلك العصر ، وكل ما جاء به ربما كان ملائماً لزمانه ، هو ولا يمكن بعد زمانه ذاك أن يكون صالحاً للعصور التالية . فمع تغير الزمن لا بدّ لفلسفته أن تتغير . ولكن ما من ماركسي يريد أن يقبل هذا . فهم يعتقدون أن نظراته صحيحة في كل الأزمان . أي أنها قيم دائمة للمجتمع الإنساني لا تتغير . وقد سددت هذه الفلسفة ضربة عنيفة للأخلاق . فقواعد الأخلاق ليست في رأي الماركسيين أشكالا من الأفكار تكونها نفس الإنسان عن بعض العوامل الحقيقية والملموسة في هذا العالم ، وقانوناً للفضائل وتعبيراً عن استجاباتها لما تدركه ، وإنما هي عندهم نتاج مرحلة معينة من مراحل التطور الإقتصادي وصل إليها المجتمع . وقد انحط هذا بالشيوعيين إلى مستوى (خدم الزمن) لا أكثر ، يعيشون في هذه الحياة بلا مبدأ .

وعلى أساس هذه النظرية ، فإن التاريخ آخذ في تقدمه الحتمي نحو هدفه . ولذلك ليس للفرص ولا لعظماء الرجال أية

يد في سير الحوادث ، فهي سائرة من تلقاء نفسها على خطوط معينة . وليس في وسع حادثة ما ، منها جل شأنها ، ولا شخصية منها كانت عظيمة ، أن تصنع شيئاً . ولكننا نجد أن الأحوال تناقض ذلك .

وقد أعطى برتراند رسل بعض الأمثلة الممتازة لحوادث وقعت مصادفة وكان لها أثر حاسم ، فقال : « لقد كان مجازفة أن تسمح الحكومة الألمانية بأن يعود لينين إلى روسيا عام ١٩١٧ ولو أن ذلك الوزير المختص قال : « لا » ، ولم يقل : « نعم » ، التي قالها فعلاً لكان صعباً أن نتصور أن الثورة الروسية كانت ستتخذ السبيل التي اتخذتها . ثم لو أن (جنوا) لم تسلم (كورسيكا) إلى فرنسا عام ١٧٦٨ لكان نابليون الذي ولد فيها في السنة التالية إيطاليا ، ولما كانت له في فرنسا حياة سياسية . والآن لا يكاد يستطيع امرؤ أن يدعي إدعاء جدياً بأن تاريخ فرنسا كان سيكون نفسه بلا نابليون » .

هذه الأمثلة يمكن أن تتضاعف أضعافاً كثيرة جداً . ففي التاريخ ساعات حاسمة لو اتخذت فيها الخطوة الصحيحة في الوقت الملائم لنجت أمة كاملة من الدمار . ومن ناحية أخرى سبب ضياع لحظة واحدة خسارة للمجتمع كله لا حصر لها . إن وقوف أبي بكر واتخاذ قراراً سريعاً بقتال الذين رفضوا أن يدفعوا الزكاة ، أنقذ الإسلام من الدمار . ولو تأخر القرار لحظة لكان معنى ذلك انتحاراً لكيان الجماعة المسلمة كله . وأن تحذيره

الحكيم الذي أطلقه بصوت مخيف، وقال فيه أنه لن يسمح لأحد أن يمتنع عن دفع شيء من زكاته حتى ولو كان عقال بعير، هذا التحذير قد كبت كل القوى التي خرجت لتقضي على الاسلام. إن بُعد نظره وصفاء ذهنه مع ما عنده من سرعة العزم والتصميم قد تضافت كلها للقضاء على الشر في مهده، ذلك الشر الذي لو لم يقض عليه بقوة في ذلك الوقت لنسف استقرار العالم الاسلامي كله. كذلك غرس ذكاء لينين ودهاؤه الاشتراكية في روسيا، البلد الزراعي. إن الفكرة الماركسية تقضي بأن تحدث الثورة الاشتراكية في الأقطار التي يكون فيها الانتاج سائراً على مقياس واسع بمساعدة الآلات، إذ أن الصراع الطبقي يكون في ذروته في هذه البلاد. ولكننا نجد أنه بقيادة لينين الحكيمة القديرة حصلت هذه الثورة في بلاد متأخرة صناعياً، هي روسيا. إذ أن لينين حين وجد السم ينخر في كيان روسيا السياسي استغل الموقف، وقلب نظام روسيا اشتراكياً. ولدينا مئات الأمثال التي تريد هذه النقطة. إن الماركسيين يريدون أن يعطوا القوة إلى تركيب منهمجهم في التفكير فينسبون ظهور عظماء الرجال في الفترات الحرجة من تاريخ البشرية إلى الضرورة. فيزعم إنجلز أن الرجل العظيم «لم يأت مصادفة، حتى أنه لو لم يكن، لجأ بدلاً منه رجل آخر».

ولكن لم يأت أحد لينقذ بلاد الاغريق أو روما في العصور السالفة، ولا جاء أحد لينقذ اسبانيا عام ١٩١٣. إن القول بأنه

أو قوياً ما هو إلا نتيجة لهذا . لذا فإن وجود الفرد غير ذي أهمية قط .

ويرى هيجل الرأي نفسه عن دور الإنسان مع اختلاف بسيط ، فهو يرى أن ما يحصل في هذا العالم من تغير ما هو إلا مجرد انعكاس حتمي لتقدم (روح العالم) ونموها . وهي تسير نحو تحقيق وجودها الذي يتم بالصراع بين النظريات المتناقضة . لذا فليس في وسع فرد أو جماعة من الناس أن ينفذوا إرادتهم نفسها . فهم جميعاً الآلات المتواضعة التي ينفذ بها تصميم (روح العالم) . وقد يشعر العظماء بالزهو إذ يسمون أنفسهم أبطالاً ، ولكنهم ليسوا إلا دمي تحركها (روح العالم) . وشبيه بذلك ما يراه ماركس فهو يعتبر الإنسان نتاجاً أنتجته وسائل الإنتاج . فبحال فكره يتلون بلون واحد هو لون المادة المحيطة به ، فهو لا يستطيع أن يختار لنفسه أي طريق بصورة مستقلة ، بل عليه أن يدور في تيار الزمن الذي لا يجري إلا وفق ما تمليه الضرورة الاقتصادية ، لذا فليس الإنسان على هذا الأساس إلا كائناتياً لا إرادة له . أما الإسلام فإنه يرفض رفضاً قاطعاً أن يوضع الإنسان هذا الموضع الذي يحرم فيه من الكرامة الإنسانية كلها ومن حرية الاختيار . وهذا أهم اختلاف بين النظرة الغربية والنظرة الإسلامية للتاريخ في كلمات موجزة .

إن الإسلام منذ الوهلة الأولى لا يعتبر الإنسان مجرد كائن حي ، بل يضعه في منزلة رفيعة هي خلافة الله على الأرض .

(وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة .
قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح
بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون) .

سورة البقرة (٣٠)

(وإذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من صلصال من
حمأ مسنون ، فلماذا سويته ونفخت فيه من روحي فقموا له
ساجدين) .

هنا يفارق الإسلام الغرب مفارقة قامة ، فعلماء الغرب يعدّون
الإنسان حيواناً عاقلاً ، أما القرآن فيرفعه إلى المكانة السامية التي
هي خلافة الله على الأرض . وبفضل هذا المركز الذي وضع الله
فيه الإنسان بين مخلوقاته صار له الحق في أن يستخدم كل شيء في
هذا العالم استخداماً كاملاً .

(ألم ترَ أن الله سخر لكم ما في الأرض) .

سورة الحج (٦٥)

(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ،
ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم
إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرؤوف رحيم ،
والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون .
وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو
الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ،

الفاضل لا ينطبق إلا على الأعمال التي يكون للمرء فيها حرية اختيار ، ولا فضيلة في فعل يقسر المرء عليه قسراً . وإننا لا نقدّر فعل الخير حين يفعله المرء إلا لأننا نشعر بأنه كان يستطيع أن يختار فعل نقيض ذلك ، لو أراد . ولكنه بمحض اختياره وإزادته الحرة اتبع الطريق القويم . يقول الله عز وجل في القرآن الكريم : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نيتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) .

سورة الانسان (٢ - ٣)

وإن هبوط الانسان من الجنة يدل على « أن الانسان قد ارتفع من الحالة البدائية للشهوة الغريزية إلى شعور من يعي أنه ذو نفس حرة تستطيع أن تشك وأن تعصي » .

ويؤكد الدكتور إقبال : « إن هذا الهبوط لا يعني فساداً خلقياً . بل هو انتقال الانسان من الوعي البسيط إلى الوميض الأول من الاحساس بالذات وهو أشبه بالاستيقاظ من حلم طبيعي استيقاظاً مصحوباً بالاحساس بهزة منباعدة عن سبب ذاتي في كيانه نفسه . ثم إن القرآن لا يعد الأرض مكاناً للعذاب سجن فيه البشر ، الآثوم في أصل تكوينهم ، بسبب خطيئة أصلية .

إن المعصية الأولى التي ارتكبها الانسان كانت أيضاً أول عمل استخدم فيه حرية الاختيار . وهذا هو السبب في ما قصّ

علينا القرآن من قصة آدم ، وكيف أن الله قد غفر له خطيئته الأولى . وإن عمل الصالحات الآن ليس عملاً يكره المرء عليه ، وإنما هو خضوع المرء للمثل الخلقية العليا بمحض اختياره ورغبة في التعاون بين نفوس حرّة . فالخلق الذي تخضع حركاته خضوعاً تاماً للسيطرة خضوع الآلة لا يمكن أن ينتج الخير . لذا فالحرية شرط في الخير . وإن السماح بظهور ذات لها حدود تستطيع أن تختار بعد أن تنظر في قيمة كل سبيل من سبل العمل التي أمامها أمر ينطوي على مجازفة كبيرة ، ذلك أن الحرية في اختيار الخير تتضمن أيضاً الحرية في اختيار نقيضه . وإن أقدام الله سبحانه على هذا يدل على ثقته الكبرى بالإنسان . وما على الإنسان الآن إلا أن يبرهن على أنه أهل لهذه الثقة^(١) .

إذن فهذه الحياة القصيرة نوع من الثقة المقدسة وضعها الله في الإنسان أفراداً أو جماعات ، ليبرهن على أنه أمين في استعمال هذه الثقة . ولئن رفعت هذه الثقة منزلة الإنسان إلى أعلى الدرجات بين المخلوقات ، فقد وضعت على كاهله في الوقت نفسه ما يلزم هذه المنزلة من أعظم المخاطر وأكثرها تحدياً . ولذا أضحي واضحاً أن هذه الحياة اختبار وامتحان للناس يبين كل منهم فيه قيمته . يقول الله تعالى في القرآن الكريم : (وهو

(١) Muhammad Iqbal ، المصدر السابق ، ص ٨٥ . وتجسد نصاً مشابهاً في ص ٩٩ - ١٠٠ من الطبعة العربية المشار إليها آنفاً . (المترجم)

ثم إن الله سبحانه وتعالى الذي أحكم نسيج هذه الحياة لا يرمي مكوكه إلى الخلف على نول الزمن دون بصيرة . إنه حكيم في خططه وعادل في ما يقرر ، ولا ينفك يراقب أعمال الناس .
(ولا تجسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) .

سورة ابراهيم (٤٢)

والحق أن يد الله تتحرك حركة دائمة إلى الأمام وإلى الخلف بمقتضى قانون فتخرج إلى النور الأمم الجديدة وتطمس الأخرى في الظلمات ، ولا رتقاء الأمم وانهارها قوانين ، ولم يترك شيء ليد مشيئة عمياء . إن الأمم التي ترتفع فتبلغ أوج التقدم والرفاه الاقتصادي ، إنما ترتفع بعد أن تنمي في أنفسها صفات خاصة ، أما الأمم الأخرى التي زحزحت عن منزلتها المرموقة إلى مكان مغمر ، فإنما أصابت هذا الحظ لأن فيها مواضع ضعف فخرت بنيان مجتمعا وقوى الحياة فيه . ومن ينظر نظرة سطحية إلى هذا الانهيار يرى أنه نتج عن هجوم خارجي أو عن خيانة بعض رؤسائها . أما الحقيقة فهي أن التدهور نتيجة فساد بطيء وانحطاط لا يشعر بها المرء ، وهما فساد وانحطاط يتجليان في كل جوانب حياة الأمة ، وينخران قوتها . ولا ريب في أن نهاية هذه الأمم قد تؤخر بعض الوقت ، ولكنها لن تصرف عنها قط ولا بدء أن تحمل بها .

(سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) .

سورة الأحزاب (٦٢)

(ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم) .

سورة الأنفال (٥٣)

وقبل أن نبحث موضوع ارتقاء الأمم وانهارها والأسباب المؤدية إلى ذلك ، نرى أن ننظر في بعض آيات القرآن التي تبين بنظرته إلى الإنسان فذلك في ما نرى أمر مهم .

١ - إن الإسلام لا يعتقد بالخطيئة الأولى أو الخطيئة الأصلية وهو بذلك يخالف المسيحية وغيرها من الأديان والآراء الفلسفية .
يقول الدكتور إقبال : « إن التوراة تلعن الأرض بسبب معصية آدم ، أما القرآن فيبين أن الأرض دار سكن للإنسان ومصدر ربح له ، وعليه أن يشكر الله على هذه الدار التي أنعم عليه بها .

(ولقد مكنناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون) .

سورة الاعراف (١٠)

كذلك ما من سبب يدعو إلى أن نفرض أن كلمة (الجنة) بالمعنى الذي تستعمل به هنا ، وهو الحديقة ، تعني فردوس الدار

عليهم وحدهم . فإن الله وملائكته لن يسحبوا البشر إلى الأمام . ثم إن الأخلاق تتضمن تأديب النفس وتعويدها النظام والطاعة . كما تتضمن السيطرة على الشهوات وتنظيم الإرادة في السعي وراء مثل أعلى . وهذا يتطلب جهوداً متجددة دائماً في مجال الأخلاق يقوم بها الأفراد أو الجماعات . وما من نجاح خالد إلى الأبد ولا تقدم باق دائم . فقد يبلغ الفرد أو الجماعة بالجهود المتواصلة والمثابرة النابعة من عزيمة مستوية خلقياً معيناً ، فإذا قلّ الجهد المبذول انحط عنه . لذا فالأخلاق ، سواء كانت فردية أو جماعية ، يمكن في أي وقت أن تنحط وتنتكس فتؤدي إلى خسران كل ما أمكن بلوغه في السنوات السابقة .

(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) .
سورة التين (٤ - ٥)

لذا فالأفراد والأمم قد يرتقون أو ينحطون حسب ما يتجهون إليه .

٣ - وثالثاً ، يصرح القرآن بوضوح أن قوانين الله لا يمكن تغييرها ، فهي ليست من صنع ظروف المناخ في الدولة التي تعيش فيها الأمة ، ولا هي ناتجة عن البيئة الاقتصادية ووسائل الإنتاج . وهي لا تختلف من زمن إلى زمن ومن مكان إلى مكان . وكل أمة توجه حياتها وفقاً لهذه القوانين تحصل من الفائدة على ما تحصل

عليه أمة أخرى سلكت هذه السبيل نفسها . فقد أعلن
القرآن جازماً :

« فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً » .

سورة فاطر (٤٣)

إن هذا الطابع العالمي للقوانين الخلقية يرجع إلى أن طبيعة
الإنسان لا تتغير . فالحوافز الإنسانية لم تزل نفسها اليوم كما كانت
منذ فجر الحضارة الإنسانية ، فالغرائز التي هي محور عمل
الإنسان لم تزل باقية كما كانت بالرغم من أن مجال النشاط الإنساني
قد اتسع ، وصفات الايثار والشرف والصدق والشجاعة المستحبة
تنال من الاحترام اليوم ما كانت تناله منذ القدم . وإن بقاء
طبيعة الإنسان ثابتة لا تتغير هو الذي حدا بالحكيم العربي الشهير
ابن خلدون إلى أن يقول : « إن المآل الذي يجري في الماضي هو
الذي يجري في المستقبل ، لذا فعلم الاجتماع الذي هو دراسة
الحاضر يلقي ضوءاً على التاريخ الذي هو دراسة الماضي ، تماماً كما
يزود التاريخ علم الاجتماع بمادة البحث »^(١) . لذا فإن الظواهر
الاجتماعية عنده تخضع لقوانين لها من الثبات ما يكفي لأن تسبب
حوادث اجتماعية تتبع أنماطاً وأساليب منتظمة واضحة ، رغم

(١) هذا النص مترجم عن الفقرة الانكليزية التي ذكرها المؤلف ولم يذكر
مترجمها من ابن خلدون ، وإنما اقتبسه من : Charles Issawi, An Arab
(المترجم) . Philosophy of History, P. 7.

أنها ليست مطلقة كالقوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية .

(٤) لذا فحوادث الماضي فيها عبرة للناس ، إذ لا بد لأهل كل عصر من أن يواجهوا النوع ذاته من التعقيدات التي واجهها أسلافهم ، فمواضع الخطر في طريق الأمة تكاد تكون نفسها في الماضي والحاضر . إن التاريخ ، كما يقول القرآن الكريم ، ليس مجرد قصص يروى عن الأيام الغابرة ، وإنما هو تحذير من المهاوي الواقعة في طريقنا . إن سجل التاريخ ما هو إلا الفئار الذي ينبىء الملاحين الجدد الذين يمخرون عباب الحياة عن الصخور المهلكة التي قد تكون خافية تحت سطح بحر الوجود الإنساني الذي لا يدرك غوره : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها » .

سورة الروم (٩)

وهذا يبين أن الماضي بكل ما فيه من نور مشرق وآلام مبرحة يتكرر متخذاً ثوب المستقبل . إن التاريخ ، كما قلنا ، تحكمه قوانين لا يقتصر تأثيرها على الماضي ، بل تؤثر كذلك حتماً في كل ظرف مشابه يطرأ في المستة . لذا فإن في حركة جميع القوى التي تنسج تاريخ البشرية عنصر ، واضعاً هو عنصر الإعادة والتكرار . فالسراء والضراء قصيبان كل أمة ، وما في العالم من أمة لم تمسك بعصا السلطة . فالذين لا تطغيهم الأفراح والذين لا تفقدهم السعادة اتزان عقولهم ، والذين لا يسمحون لأنفسهم بأن

ينهاروا تحت وطأة المصائب هم الذين يسمح لهم قانون الحياة بالبقاء والنمو . أما الذين لا يستطيعون التمسك أمام الشهوات وفي وجه ضربات القدر ، فاولئك الذين يحرفون خارج نطاق الوجود الفعّال : « أن يمسم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداؤها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » .

سورة آل عمران (١٤٠)

« إن مع العسر يسرا »

سورة الشرح

« تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي » .

سورة آل عمران (٢٧)

ان ظاهرة اتباع النهار لليل واتباع الليل للنهار لا ينحصر صدقها في هذه الكرة الأرضية ، بل يتعداه إلى عالم الحياة . وكذلك فإن نفخ الحياة في الميت ، وأماتة الحي لا يقتصران على الأفراد ، فهذا الأمر نفسه يظهر عند الأمم أيضاً . فكلمة (نهار) تمثل السعادة والقوة ، و (ليل) ترمز إلى فقدان القوة والأفول والانحيار . وإن القرآن حين يأتي بهذا التشبيه ، إنما ينبّه إلى أن الذين تلفهم ظلمات المصائب والشقاء يخرجون من تحت أجنحة الأشباح التي تغطيهم إلى نور السعادة والمجد . وكذلك تموت الأمم ثم تولد مرة أخرى ، ولكن يجب أن لا يغيب عن البال

إن هذه النظرة عن طبيعة الإعادة التي في التاريخ تختلف اختلافاً جوهرياً عن القانون المظلم الذي جاء به نيتشه وهو قانون الإعادة الأبدية الذي بمقتضاه « تأتي جميع الأشياء مرة أخرى ، وأخرى بصورة متشابهة : القوي والضعيف ، الخير والشر ، الأفراح والآلام ، النجاح والاختفاق ، بكل تفاصيلها الدقيقة حتى أن كل رجل يعيش في المستقبل مرات لا نهاية لعددتها كما قد فعل في الماضي ، وهي ليست حياة جديدة ، ولا حياة أحسن ، ولا حياة مشابهة ، ولكن الحياة نفسها . وما من شيء أبغض إلى روح الإسلام من هذا . أن نيتشه يعتقد أن نظام الحوادث في العالم ثابت لا سبيل إلى تغييره ، وإن كلمة (إعادة) ذاتها تعني الثبات .

يقول دكتور إقبال : « إن الماضي بلا شك يبقى ويعمل في الحاضر ، ولكن هذا العمل الذي يعمله الماضي في الحاضر ليس كل ما في الشعور ، فإن عنصر القصد والغرض يكشف نوعاً من النظر البعيد في الإدراك . وإني أرى أنه ما من شيء أكثر بعداً عن القرآن من فكرة أن العالم تجسيد مادي لحطة استقرت في الذهن من قبل — وأنه نتاج كامل الآن ، وكان قد غادر يد صانعه منذ عصور طويلة ، وهو الآن في الفضاء كتلة مادية ميتة لا يفعل الزمن فيها شيئاً ، لذا فهي لا شيء . إن هذا العالم في الحقيقة ينمو . وأنه قابل للتوسع والامتداد إلى غير ما حد ، إذ أنه ربما

يكن في أعماق كيانه حلم المولد الجديد ، (١) .

أن اليد الخفية التي تنسج على نول الزمن تأتي إلى الوجود ببساط منسوج يظهر فيه بوضوح تصميم تام لا مجرد إعادة لا نهاية لها للنموذج نفسه . لقد أعطى بروفييسور توينبي مثلاً يوضح ايضاحاً يدعو إلى الإعجاب طبيعة التغير إذ يقول « إن حركة الدولار دون ريب حركة إعادة وتكرار بالنسبة إلى جزع الدولار (٢) نفسه . ولكن الدولار نفسه لم يصنع ويركب حول جزعه إلا لأجل أن تستطيع العربية أن تتحرك بواسطته ، وهو ليس من العربية غير جزء . أما إن العربية التي هي علة وجود هذا الدولار لا تستطيع أن تتحرك إلا بفضل حركة الدولار الدائرية حول جزعه ، فهذا لا يرغب العربية نفسها على أن تسير كدوارة الأطفال في طريق دائري ، (٣) لنضع بدل الجزع طبيعة الإنسان الأساسية ، فحينئذٍ سيمكننا أن نفهم تقدم الإنسانية ومصيرها المتكرر المعاد ، فالبشرية دون ريب تسير قدماً ، ولكن دولار نشاطها لا يدور إلا حول جزع طبيعتها . وعندما تندفع العربية إلى الأمام ، فإن الجزع نادراً ما يتحرك إلى الأمام

(١) Muhammad Iqbal ، المصدر السابق ، ص ٥٥ . راجع ص ٦٦ و ٦٤ من الطبعة العربية . (المترجم)

(٢) الجزع هو المحور الذي يدور عليه الدولار . (المترجم)

(٣) Arnold Toynbee, A Study of History edited by D. C. Somervell, P. 453

أيضاً . إن الثورات التي نراها في الأمم تشبه ثورات الأرض .
فالكرة الأرضية تمر بتغيرات موسمية خلال السنة ، ولكنها لا
تغادر مدارها أبداً . إنها تتحرك في الخطوط المرسومة لها . لذا
ففي كل يوم جدّة ، ولكنها صورة للماضي . وهكذا يتضح أن
عدم الاستقرار الفكري الذي يعاني الإنسان الحديث منه ،
والمشكلات العديدة التي يواجهها اليوم ليست جديدة ، وإنما هي
قصص قديمة لمصائب تكررت مراراً كثيرة مع تنويع بسيط .
لقد بينا من قبل إن ما أدعاه هينغل وماركس من أن الموحّد خير
دائماً من الفرضية ونقيضها لأنه يحوي في ذاته العناصر الفعالة منها
إنما هو ادعاء لا أساس له مطلقاً . وكذلك بينا أنه لا أصل للرأي
القائل بأن التوفيق بين الفرضية ونقيضها ينتج عنه نظام جديد
له خواص كل منها كما أن التاريخ لا يدعم هذا الرأي . ففي
كثير من الأحوال حين يولد النقيض من الفرضية يحطمها تماماً ،
وحينئذٍ يتكون ضدّها ردّة فعل فينعدمان تماماً وتقوم بدلاً منها
حركة جديدة :

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، وإكن
الله ذو فضل على العالمين» .

سورة البقرة (٢٥١)

«الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله،
ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات
ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً - ولينصرن الله من ينصره

إن الله لقوي عزيز ، .

سورة الحج (٤٠)

هذه الآيات تبين بجلاء أن الله لا يعطي أية أمة السيطرة والغلبة الدائمتين . فكل جماعة من الناس تتسلط مدة من الزمن ، وبعد ما تمر هذه المدة تزول من الوجود ، وتقوم فوق رفاتها أمة أخرى . وإن الله ليس له حقد شخصي على أية طبقة من الناس ، وإنما هو سوء عملهم الذي يجلب عليهم الدمار فتولد على أنقاضهم طبقة أخرى .

والسؤال الذي يبرز بصورة طبيعية هو: ما السبب الأساسي لهذا التغيير ؟ والقرآن يحيب بأن التغيير قد سببه شيء في الداخل لا الخارج :

• إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، .

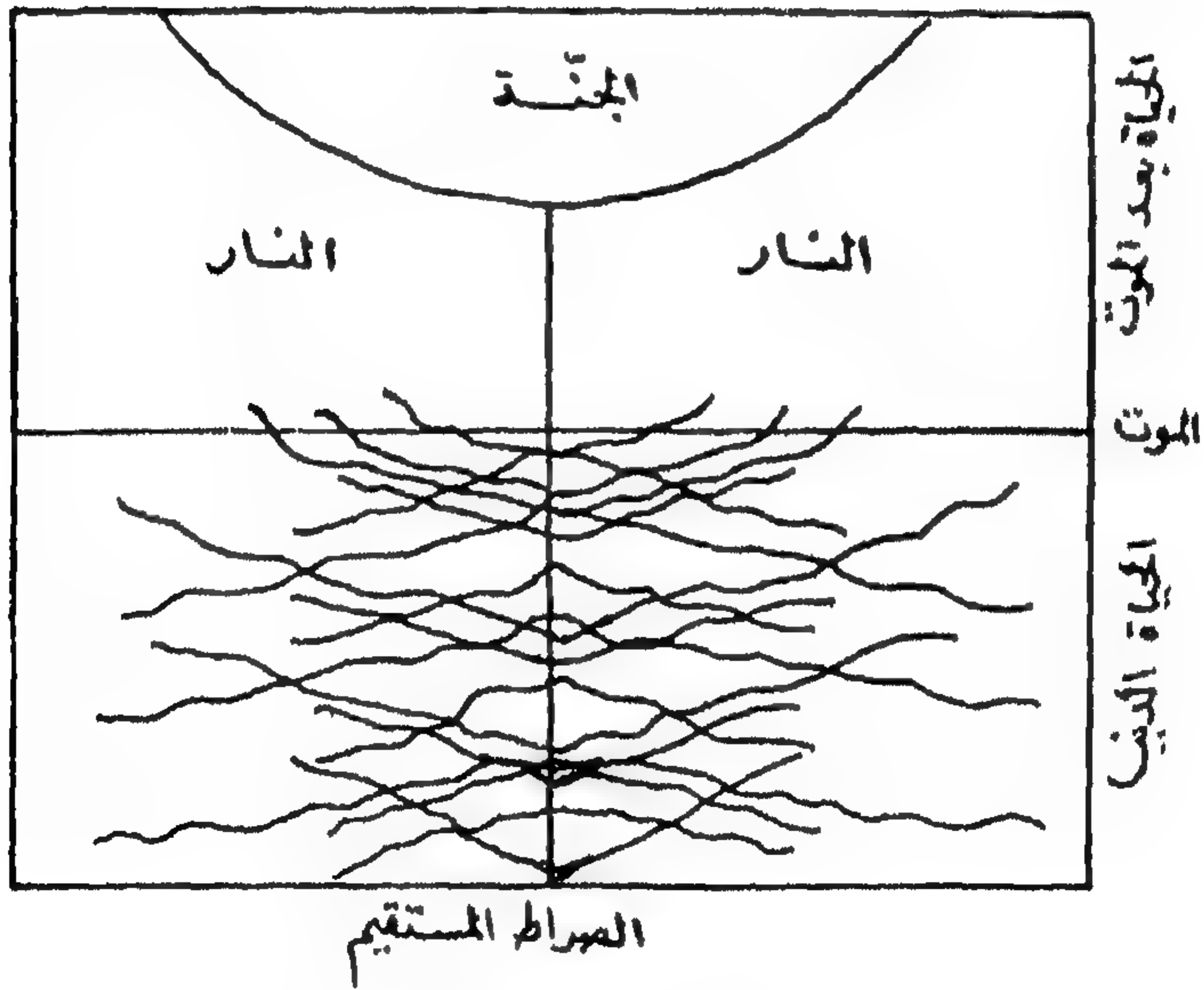
سورة الرعد (١١)

إنها الدفعة الداخلية للحياة ، الروح التي في داخله ، هي التي تحدث التغيير في حياة الفرد والأمم . والتغيير الصائب في الفرد والمجتمع لا يمكن ضمانه إلا حين تتغير النفس . إن الفرد عالم قائم بذاته ، فإن فيه صفات لا حصر لها في الرأس والقلب ، وأن فيه أهواء متضاربة ، وأذواقاً وميولاً مختلفة . وحين يتصل البشر ببعضهم يبرز الكثير من الأمور المعقدة التي تزداد مع الزمن تعقيداً .

وأنه ليصعب ، بل يستحيل على الأفراد مهما أوتوا من العلم والخبرة أن يسبروا غور كل جانب من جوانب حياة الإنسان بفكر متزن . وهم لا يستطيعون رغم ما أوتوا من عظيم الحكمة أن يضعوا لأنفسهم منهجاً مرتباً محبوكاً تنال فيه كل ناحية من نواحي الحياة الإنسانية العدل الكامل .

وهكذا يتضح أن الافراد أو الجماعات المستقلة من الناس الذين ليست لهم نظرة فيها من البعد ما يكفي لان تبصر من وراء فترات طويلة من الزمن ، أو تحيط بشق المشاكل التي في الحياة الإنسانية ، لا يستطيعون أن يرسموا الحياة الناس منهاجاً متوازناً يفي بمتطلبات كل ناحية من نواحيها . إن طبيعة الإنسان أشد تعقيداً من أن يستطيع عقل الإنسان أن يحلها . فالإنسان لا ينظر إلا إلى بضع من حاجات البشر ويجهل الباقي . وبهذا يصيب جوانب الإنسان المهمة حيف عظيم . وهذا يحطم استقرار الحياة فيتحرك رقاصها إلى أقصى الطرف الآخر . ثم يأتي بعد ذلك رد فعل مرة أخرى ، فإذا حاجات الحياة التي كانت قد حرمت من نصيبها الذي تستحقه تستأثر وحدها بكل اهتمام البشر وتنال درجة من الاهمية لا تستحقها . وتتكرر نفس عملية رد الفعل . وبهذا تخيب الإنسانية في مسعاها لكي تجد الحد الوسط اللازم لتقدمها . فهي تتأرجح بين النهايتين المتطرفتين وبين هذين يوجد (الصراط المستقيم) الذي أوضحه الله تعالى . وهذا وحده هو الذي يؤدي بالإنسانية إلى طريق الفلاح في هذه

الدنيا وفي الآخرة . وكل السبل الأخرى تؤدي بها إلى الضلالة والهلاك . لقد قاد المفكرين الحديثين جهلهم المحض إلى أن يمتقدوا بأن الأسلوب الديالكتيكي هو الطريق الطبيعي الذي تتقدم به الإنسانية الآن . إن الصراع بين الفرضية ونقيضها لا يؤدي إلى تقدم ، وإنما هو ضربة القدر القاصمة التي أصابت البشر جزاء أعمالهم السيئة . فلقد مرت قافلة البشر مراراً بالصراط المستقيم ولكنها لم تتخذه لها سبيلاً . ويمكننا أن نشرح العملية كلها بالمخطط التالي :



يفهم المرء مما جاء به القرآن أن الوحدة الواضحة في الدراسة التاريخية ليست الشعب ولا البلاد ، وإنما جماعة معينة من البشر

تسمى (ملة) . فغير المسلمين كافة ينتمون إلى ملة واحدة دون النظر إلى زمان أو مكان . وكذلك مسلمو كل العصور وكل البلدان يكونون مجموعة اجتماعية واحدة . إن تاريخ الإسلام هو تاريخ الصراع بين قوتين في العالم ، هما الشر والخير ، وهو الصراع الذي بدأ مع مولد أول رجل أغواه الشيطان . وهذا الصراع يرمي إلى تقوية شخصية المسلمين لكي يستطيعوا أن يستخدموا الصفة التي وهبها الله إياهم لكي يزيدوا من سرعة نشاطهم الخلاق وفقاً لأوامر الإسلام . لذا فإن ملة الإسلام والأمم غير المسلمة قوتان متضادتان في هذا العالم كانتا دائماً في خصام ونزاع . وإن على ملة الإسلام أن تعتبر نفسها مسؤولة عن كل ما يحدث من حولها ، وأن تجاهد من أجل إقامة الحق وإزهاق الباطل في كل حين ، وفي كل سبيل من سبيل الحياة الإنسانية . فالحق أن الكفر لم يكن قط ولن يمكن أن يكون يوماً ما صديقاً للإسلام . وكلما حدث أن وَّهَنَ نشاط عِدائِهِ للإسلام لم يكن السبب استعساناً لما جاء به القرآن ، وإنما ضعفاً في حضارة العالم الإسلامي .

وبعد هذا البحث نريد أن نجد الأسباب التي تؤدي بالأمم في هذا العالم إلى طريق المجد ، والأسباب التي تجلب لها الدمار . إن من الصفات ما إذا نمت الأمم في أبنائها تالت السيطرة والسيادة على أراضيها ، وإذا فقدته تردت إلى الخضوض . فما من أمة يمكنها أن تزعم أنه ما من أحد يستطيع أن ينزلها من كرسي السلطة والسيادة في بلادها بحجة أن هذه البلاد التي تعيش فيها

أرض ورثتها عن أجدادها ، فالله سبحانه لا يقر هذا الزعم ، بل ينظر إلى هذه الأمة التي أتيح لها أن تحكم أمة قائمة بالحكم بالحق أم بالجور والظلم . فإذا كانت طاقات الأمة موجهة نحو الخير سمح لها بأن تزداد قوة إلى أقصى حد ، فإنها بذلك تعطى الفرصة لكي تعرض قيمتها الحقيقية ، وبذلك تنفع العالم كله . أما الأمم التي ترتكس في السبات ، فإن طاقاتها الخلاقة تغدو عقيمة وتلجأ إلى الظلم والطغيان وتنفق موارد الأرض التي في قبضتها على إفناء البشر بدلاً من أن تنفقها على إسماعهم ، وهذه الأمم تحرم السلطة والنفوذ ، إذ أن سم الفوضوية القاتل ينخر في كيائها السياسي ، وفي مدنياتها وحضارتها فتهدى كاهوي بيت من ورق . ونريد الآن أن نجد الصفات التي إذا ربّتها الأمة في أبنائها قادت إلى خير مصير .

« والعصر ، أن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

إن من يلقي نظرة على صفحات التاريخ حق ولو كانت نظرة سطحية يقر بأن العقيدة الخفية التي تحملها أية أمة في مثلها الأعلى تقودها إلى طريق المجد ، إن هذه العقيدة وحدها هي التي تضيف وحدة على الشكل الملون لحياتها المتعددة الجوانب وتجعلها تستمر بتقدمها . وحين ينهمك الأفراد في صخب الدنيا وضوضائها وحين تمزقهم الأهواء المتضاربة ، فإن المثل الأعلى يجمع بينهم ويوقظ عزائمهم ويحفظ قواهم من أن تتبدد . لذا فإن الصفة الأولى ذات

الخطر الاكبر التي لا بدّ للأمة أن تنميها في نفسها لكي تتقدم هي
أن تضع أمامها مثلاً أعلى ثم تشرب نفسها حباً مفرطاً له . أن
التطلع إلى بلوغ المثل الأعلى يوقظ في الأمة ما فيها من الصفات
الكامنة . لذا فإن قادة كل أمة تسير في طريق التقدم يلاحظون
بدقة أن لا تكون نظرة اتباعهم إلى المثل الأعلى غير منبعثة من
أعماق قلوبهم أو نظرة تردد ، بل نظرة ملؤها العزم والجهد
المركّز ساعية إلى نيله بأسرع ما يمكن . يجب أن ينهمكوا في
العمل لهدفهم في الحياة ، وأن لا يدخروا جهداً في أن ينمووا في
أنفسهم الصفات الخلقية والشخصية التي تؤهلهم لبلوغ هدفهم .
إن الهدف هو غاية ما تحتاجه الأمة السائرة في طريق التقدم
وأنه ألف مطامعها وياؤها . فالأمة التي لا هدف لها لا تستطيع
أن تحرز تقدماً يعتد به . هذا أمر مهم جداً . لقد كانت العقيدة
الراسخة في المثل الأعلى العظيم للإنسان دائماً صفة قوية محرّكة
ومفجرة للطاقات ، ولم يقتصر نجاحها في الماضي على أن غيرت
حياة الإنسان الشخصية كلها ، بل نجحت كذلك في تغيير مصير
أمم . فإن ما حققه العرب بزعامة النبي الكريم وقيادته الحكيمة
القديرة أحد الأمثلة على ذلك . وإعادة بناء كيان روسيا
السوفياتية أخيراً - سواء أقر المرء ذلك أم خالفه - مثال آخر
على ذلك فكلامها يبينان بجلال كيف اضطرت قوى المعارضة
الكبرى إلى أن تنحني تحت ضربات هؤلاء بثملهم الأعلى بعزم
وإخلاص . وإن لأبناء كل أمة دائماً رسالة تشجيع ، إن كانوا

مخلصين في اتباع غاية معينة . إن الأمم الميتة ليست ميتة بحكم القضاء أو بالفطرة . وأن الحب الذي يملأ القلب لمثل أعلى يمكن أن يولد طاقة تجعل الأمة تبذل جهداً للوصول إلى هدفها لا تستطيع حتى النجوم في أفلاكها أن تقف في سبيله .

أهم الأعمال الطيبة التي يذكرها القرآن الصدق . فالإنسان كائن إجتماعي ، ولا بد له من أن يقيم علاقات مع أبناء جنسه . والأفراد لا يمكن أن يرتبط بعضهم مع بعض ارتباطاً وثيقاً بأواصر الحب إلا حين يكونون في كل أعمالهم صادقين . وإن الأمم التي تفقد هذه الصفة مقضي عليها بالسقوط ، وأما الهيكل الإجتماعي الذي مادة بنائه الصدق فيستطيع أن يقف في وجه أعنف ضربات الزمن .

ذلك هو السبب في أن أنبياء الله كافة أكدوا تأكيداً شديداً على قيمته . وحق في عالمنا اليوم نجد أن الأمم التي تفوق الأمم الأخرى في التجارة هي الأمم الصادقة في معاملاتها . إن كرامة الفرد أو الأمة تعتمد تماماً على هذه الصفة . وهي تؤثر تأثيراً بالغاً في كل من يتصل بهم الفرد اتصالاً شخصياً . لقد أكد الرسول الكريم تأكيداً شديداً على هذه الصفة حتى أنه طلب مرة من رجل فيه عدد من الآثام أن يترك أول ما يترك الكذب لأنه أبو الآثام . وقد ضرب هو نفسه أمثلة متعددة للصدق والنزاهة . حين أجمعت قريش أمرها على أن تقتله ، وكان على وشك أن يهاجر إلى المدينة ، في هذه اللحظة الحرجة ، أرسل في طلب

علي وأخبره بالأمر الإلهي وسلّمه كل ما كان في حوزته من الودائع لكي يسلمها إلى أصحابها . إن هذا العمل الذي قام به الرسول الكريم والذي يدل على النبيل والتقوى ترك انطباعاً لا ينمحي في أذهان الأعداء . وقد أسر هذا العمل وحده قلوب أكثر قريش . وإن مما يتفق مع طبيعة الأشياء أن لا يكون هذا السبب أقل خطراً من الأسباب الأخرى التي أدت إلى اندحار المكين في بدر . وحين جيء بقريش لتقاتله في بدر أحس أكثرهم بالعار لما يقومون به وقالوا : ويلكم أنكم قد خرجتم لتقاتلوا نفساً كريمة حرص صاحبها على أن يؤدي إليكم أماناتكم الغالية حين كنتم محيطين ببيته تريدون قتله . . . لقد كانوا دون ريب يحملون سيوفهم في وجه النبي وأصحابه ، ولكن قلوبهم لم تكن مع سيوفهم . فكانت هذه الحرب الداخلية أكبر عقبة في طريقهم ، فذابت قلوبهم قبل ما جاؤا إلى القتال بمدة طويلة ، وأنه لمن المعجيب أن هؤلاء الذين عزموا على تحطيمه هو وصحبه سقطوا صرعى قوته الخلقية .

أن الإخلاص مفتاح الشخصية الطيبة . وإن صرح الخلق الرفيع لا يبني إلا على صخرة الإخلاص . وحين ينعدم الإخلاص فلا بدّ للكيان الاجتماعي أن ينهار . وكل شيء فيه طعم التصنع إنما هو عين الضعف .

والكرم كذلك مظهر أساسي للعمل الطيب . والتاريخ يشهد بأن كرم النبي حق مع أعدائه فريد في ما سجله التاريخ . كان

عبد الله بن أبيّ عدواً لدوداً للإسلام ، وكان يقضي ليله ونهاره في الكيد للعقيدة ولا ينفك يحرّض أهل مكة واليهود على سحق المسلمين ، ومع ذلك فحين مات تضرع النبي إلى الله سبحانه أن يغفر له . وكذلك كان موقف النبي مع أهل مكة الذين عذبوه وأصحابه عذاباً شديداً لا يوصف ، فقد عفا عنهم . لقد أثر كرم النبي هذا وعفوه تأثيراً عميقاً في قلوب أعدائه ، فلم يسمعهم إلا أن ينضوا تحت راية الإسلام .

والشجاعة درّة أخرى لامعة جداً في شخصية الأمم الناهضة فهذه الأمم لا تسمح للخوف أن يصيبها لحظة واحدة . وقد ضرب الرسول الكريم أمثلة عديدة للشجاعة . فإنه حتى حين كانت المكائد تحسّاك في مكة لقتلة ، كان يتجول ليل نهار غير خائف . وحين وقع جيشه كله في الكين في غزوة أحد بدأ يصيح عالياً في جنوده أن يتغلبوا على اضطرابهم ويستعيدوا نظامهم . ولم يكن يبالي بالخطر الذي يهدد حياته هو .

والصفة الأخرى هي (التواصي بالحق) . والذي يعنيه هذا أن على الناس أن يكونوا في إقامة العدل عادلين تماماً مع المسلم وغير المسلم ، الصديق والعدو ، فجميعهم يجب أن يكونوا متساوين أمام القانون . ولقد أكد القرآن على هذا في مكان آخر بقوله : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، أعْدِلُوا هو أقرب للتقوى » ، إن صفة إقامة الحق هذه هي الشيء الذي ينقص أمم العالم اليوم نقصاناً فظيماً ، وهذا النقص هو الآفة التي تنحدر

في عروق الحياة في العصر الحديث .

إن دول هذا الزمان لا تنظر إلى شيء غير مصالحها الخاصة المتغيرة ، ولا تفكر هل إن كان كفاحها من أجل ضمان تلك المصالح له ما يسوّغه أم لا . وليس لديها من مقياس تفرّق به بين الحق والباطل غير الفائدة المادية . وعلى أساس هذا المقياس يبنيون سياستهم الخارجية والداخلية . وواضح أنه حين يتعمد المقياس المجرّد للقيم المعنوية تكون للجماعات المختلفة من الناس نظرات متباينة جداً بشأن ما يكون أفضل مصالح الأمة . ولهذا فإن المصلحة الشخصية وحدها تستطيع أن توجه سلوك الأمم . وهذا أمر لا مفر منه ما دام التمييز بين الحق والباطل ، وبين ما يجب أن يعمل وما يجب أن يترك قد ترك لرحمة مصلحة الفرد أو الجماعة ، وبكلمات أخرى قد ترك لأهواء الناس المتقلبة . فإذا أقررنا بأن هذا وضع طبيعي لشؤون البشر (وبذا نعتبره وضعاً مرغوباً فيه) ، فمعنى ذلك أننا أقررنا بأن كلمتي (الحق) و (الباطل) ليس لهما معنى دائم مجرد ذاتها ، وإنما تعيّن معنيهما مصلحة الوقت والظروف . لذا فليس لنا من اختيار غير أن نرفض وجود أي واجب خلقي كهذا – لأن الواجب الخلقي لا معنى له إن لم يتصوره المرء شيئاً مطلقاً .

لذا فإن المصلحة الشخصية وحدها يمكن أن تقودنا في تخطيط شؤوننا . والمصلحة الشخصية اصطلاح نسبي ، إن ما يكون من مصلحتك ليس شرطاً أن يكون من مصلحتي (وهو

اعتيادياً ليس من مصلحتي) ، وينتج عن هذا إن مصالحنا يجب أن تصطدم في نقطة ما ، (١) .

هذا ما يحدث في عالمنا اليوم ، وهذا هو أكبر أسباب انحلال نظام العالم الجديد . فالعدل والقسط مفقودان إلى حد بعيد . وإن قوانين العدالة موضوعة لخدمة المصالح القانونية لبعض الأمم . إن نبي الإسلام قد أمر دائماً في وصاياه لقادة الحملات على الأعداء والمغيرين من القبائل والأمم أن لا يتعرضوا للرجال المعتزلين في الصوامع ، ولا يعتدوا على امرأة أو يؤذوا رضيعاً أو مريضاً في فراشه . واقتدى أبو بكر بالنبي فقال : « يا يزيد اجتهد في أن تلزم الحق والعدل في أعمالك ، لأن من لم يسلك هذه الجادة لم يلق النجاح الذي يؤمله » (٢) .

(١) Muhammad Asad, Arafat, July 1947, p. 265
(٢) Syed Amir Ali ، المصدر السابق ، ص ٨٦ . وتجد نصاً مشابهاً في ص ١٠١ من الترجمة العربية لعمر الديراوي المطبوعة في بيروت عام ١٩٦١ بعنوان « الإسلام تاليف سيد أمير علي ، وقد ذكر المترجم في حاشية الصحيفة المذكورة : « هذا هو معنى النص الذي يورده ابن هشام . أما النص نفسه مقتبساً عن الحضري صفحة ٢١٤ فهو « اغزوا باسم الله فقاتلوا عذر الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين ، فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ، ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء ، وكان ذلك في غزوة مؤتة » .
وكتاب الحضري الذي يشير إليه الاستاذ الديراوي هو « نور اليقين في سيرة سيد المرسلين » تأليف الشيخ محمد الحضري ، الطبعة السادسة عشرة ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
(المترجم)

إن هذه الصفة التي هي إقامة الحق دوماً لم تكن أقل تأثيراً في رفع المسلمين إلى قمة المجد . لقد قال الرسول الكريم حق لابنته فاطمة : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

والصفة الأخيرة هي الصبر والتحمل .. وهي ليست أقل خطراً من سابقتها . لقد أظهر التاريخ كله أن الأمم التي تربع في صراع البقاء هي الأمم التي تتصف بالشجاعة والجد والذكاء . والأمم التي من صفاتها الخمول والهلل والطيش نصيبها الاندحار . وأنه خطأ كبير أن يقال ما أسعد الأمة التي لا تواجه أية مصاعب أن الأمم التي تتقدم هي وحدها الأمم التي تجرأ على مجابهة الخطوب وتحرز الانتصارات الباهرة حتى لو أعاق سيرها الاخفاق ، أما الذين يقنعون بالركض بروح متخاذلة ، فلا يستطيعون أن يحرزوا أي تقدم . فهم يعيشون في غبش رمادي لا يعرف النصر ولا الاندحار . أن المحن والخطوب أهم اختبار وخير محك لإخلاص الناس .

لقد كان لصبر الرسول وأصحابه وتحملهم أثر كبير في نجاح الرسالة . إن مواجهة مصاعب الحياة ببالغ الشجاعة والجرأة ، إنما هي ميدان تدريب تربى فيه فضائل الثبات الذي هو صفة أساسية من صفات الأمة الحية . وما لم تكن الأمة محاطة من جميع الجوانب بعقبات كثيرة ، وما لم تعترضها الصعاب ويشتتها البؤس فإنها لن تستطيع أن تنمي ما فيها من قوى كامنة . إن النباتات التي تبقى في عالمنا هذا هي النباتات التي تستطيع أن تصمد

للرياح الهوج .

يقول القرآن الكريم مرة أخرى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زَبَدًا رابيًا ، وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حليه أو متاع زَبَدٌ مثله - كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزَبَدُ فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ، .

سورة الرعد (١٧)

لقد بيّن القرآن الكريم بأسلوب الكناية أن الأمم التي في بقائها فائدة للبشر هي وحدها التي تبلغ قمة التقدم والمجد ، لذا فالواضح أن الذين يبقون ويصمدون لأشد ضربات الزمن هم الذين وهبوا المشاعر الرقيقة تجاه بني البشر ، الذين لم يستسلموا لحياة الترف ، ويستطيعون أن يتحملوا كل أنواع المصاعب من أجل إخوانهم البشر . إن هذا المبدأ شامل تماماً ، حتى أنه لينطبق على كل سبل الحياة الإنسانية .

ثم يزيد القرآن الكريم ذلك أيضاً بقوله : « زَيِّنَ للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل : أنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا اننا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار .

الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار .
سورة آل عمران (١٤ - ١٧)

هذه الآيات تعدد بعض ما يستغرق انتباه الإنسان مما في هذا العالم ويحرفه عن الصراط السوي . ويتعبير آخر ، تسيطر على أغلب البشر (غرائز التملك) فتغزو الغرائز المبدعة ضعيفة جداً إن لم تختلف تماماً . فحين تسيطر غرائز التملك عند إنسان ما يتجه نشاطه كله وجهة واحدة . هي الحصول على وسائل الراحة المادية ، فلا يستطيع عقله أن يفكر في شيء مما وراء ذلك . وتأتي أيام في أثر أيام وهو مشغول يجمع المال . والخلق عنده ، والعدل والصدق ليست إلا كلمات جوفاء لا فائدة لها في الحياة العملية ، غير أنها مفيدة إن ساعدته في الحصول على المزيد من المال ، أما إن لم تساعد في هذا فهي غير مفيدة قط . لذا فإن مصير كل قواعد السلوك أن يلقي بها عرض الحائط إن هي وقفت في طريق التقدم المادي . وحب المال يرافقه حب القوة والامتياز . إن ما يرغب فيه الأرستقراطيون لا يقتصر على امتلاك المال ، بل كذلك أن يتمداه إلى إبقاء الآخرين تحت نير الفقر المدقع .

وبهذا يكون المجتمع كله قد انشق فصار طبقتين متميزتين ، أصحاب المال ، والذين لا مال لهم . فأصحاب المال يملكون الكنوز ويسيطرون على شؤون الحكم أيضاً ، والذين لا مال لهم يحراثون الأرض ويعملون في المصانع فلا يكادون ، بالجهد الشديد المستمر ، ينتزعون من موارد هذا العالم قوتاً يبقينهم أحياء .

والأغنياء يمسون بليدي الإحساس ، فينظرون إلى كل هذا
الظلم والظلم بلا مبالاة . ورجال الدين ، إن وجدوا ، ينظرون
إلى هذا الجور ، ولكن إحساسهم لا يتحرك قط ، فهم قانعون
بمجرد إلقاء خطب تخرج من الشفاه فقط ، وحث الناس على عمل
الصلوات ، ولكن لا يفعلون شيئاً من الأمور العملية ، فهم إما
أن ينزوا في صوامع أو يصبحوا آلة بيد الأرسقراطيين ذوي
الخلق السيء يفرضون بها الأخطاء على الفقراء المساكين ، فيغدو
الدين طقوساً وشعائر — أي مجرد حيلة للنجاة في الدار الآخرة .

ومن هنا تكون الفوضى الخلقية المرعبة التي تولد من العذاب
الذي لا يوصف والظلم الذي لا يطاق في المجتمع . أنت هذه
الظروف تعمل كالمول في أسس الكيان الإجتماعي ، ولا تستطيع
الآهة والبهرج في ظاهر حياة الأمة أن يعوضا عن هذا الضعف ،
فيصيب الأمة كلها الدمار . لقد سجل القرآن حياة أمم كثيرة
غرّتها متاع الحياة الدنيا ولم تفكر في ما وراء ذلك ، وجعلها
هذا السعي المندفع وراء المال لا تبالي قط بكل القيم النبيلة لحياة
الإنسان ، فغدت وحوشاً بكل معنى هذه الكلمة . ما من شك
في أنها قد أحرزت شيئاً من التقدم إلى مرحلة ما .

ولكن حين استنفدت طاقاتهم الخلاقة أمسوا خاملين ،
وانقلب كثير من فضائل حضارتهم المادية رذائل . وأقحمت
الأمة كلها في انفجار غير مألوف من الحروب والثورات
والفوضىّة وسفك الدماء ، وفي فوضى إجتماعية وخلقية

واققتصادية وسياسية وفكرية. يصف القرآن الكريم إحدى هذه الأمم (قوم عاد) فيقول :

« أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين . »

سورة الشعراء (١٢٨ - ١٣٠)

وكانت الأمة التي خلفت عاداً ثمود. وكانت كذلك منغمسة في ملذات الحياة ، وإن استعراضاً سطعياً لحياتها اليومية يكفي لأن يقنع المرء بأن هذه الأمة قد عميت عن كل ما هو نبيل أرفاضل :

« أتركون في ما ها هنا آمنتين ، في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنعثون من الجبال بيوتاً فارهين . »

سورة الشعراء (١٤٦ - ١٤٩)

إن هذا التهالك على جمع المال ينخر المجتمع . فضمير أغلب أبنائه ملطخ ، فلا يستطيعون أن يميزوا الحق من الباطل ، فيهبون في أعماق جمع الفساد الخلقي ، فيتعاطون كل ما يخطر في مخيلتهم . وفي أحضان مثل هذه الأمة التي كانت في أحط درك من الانحطاط الخلقي ولد لوط . وخاطب لوط أمته :

« أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون . »

سورة الشعراء (١٦٥ - ١٦٦)

ولكن الأحداث سارت في اتجاه خطير ، إذ بدلاً من أن يعملوا بنصيحة رسولهم ويقوّموا سلوكهم ، وبخوه على نصيحة :
« قالوا : لئن لم تفتنه يا لوط لتكونن من المخرجين » .

سورة الشعراء (١٦٧)

إن هذا الانحطاط في أخلاق الأمة لا يتجلى في ناحية واحدة من نواحي الحياة ، بل هو أمر شامل حتى أنه لا ينبجوا جانب من جوانب الحياة الإنسانية من تأثيره المفسد . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في أثناء مخاطبته أهل مدين :

« أوفوا الكيل ولا تكونوا من الخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبغسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .

سورة الشعراء (١٨١ - ١٨٣)

ومكذا ، فإن الانحطاط الخلقي بين أبناء الأمم هو الذي يسبب سقوطها . ولا ينقذها ازدهار قوتها العسكرية . وحين يكون المحلل خلقي يصبح النسيج الاجتماعي كله وقوداً يغذي لهب الخراب الذي يبتلع كل شيء . إن هذا القانون ينطبق على العالم كله . كتب مؤلف كتاب (تاريخ المدنية الحديثة) في أثناء بحثه في أسباب سقوط الامبراطورية الرومانية قائلاً : « إن جمهرة الموظفين ذوي الامتيازات لم تقم إلا بتقليل عدد دافعي الضرائب وزيادة النفقات . وازداد عبء الضرائب أكثر وأكثر

على الطبقات التي تقل عنهم غنى . ولم يستطع موظفو البلديات أن يسدوا النقص حتى بالتضحية بأموالهم الخاصة ، فتدهوروا هم أنفسهم ، فزادوا بذلك طبقتي الفقراء وعبيد الأرض .. وتلاشت الوطنية . لقد كان شعار الحكم في روما ضمان السلام ورخاء العالم . وحين ذهب السلام والرخاء لم يبقَ من سبب للإخلاص لروما. أن لقب (روماني) الذي أصبح عاماً منذ زمن (كاراكالا) فقد كرامته وغدا لا يضمن الحماية . لذا لم تنظر الولايات باستياء إلى مجيء سادة جديدين فهم لن يكونوا أقسى عليها من روما نفسها .

« ونظير كل هذا البؤس كان يتحكم في القصور ترف لم يسمع بمثله ، ومواكب من الخيل والعربات الفارهة والمهرجانات التي لا تنتهي ، وألعاب سر كس ومنازلات المصارعة مما كان يشاهده حق المسيحيون رغم منع الكنيسة . ولقد حوى المجتمع كل نقيض ، مخاصمات المذاهب المسيحية ، والهجمات الأخيرة للفلسفة الوثنية ، والصنعة في شعر شعراء الانحلال ، والأساقفة ذوي الجدد ... وآلاف الموظفين الذين يتملقون الأمير ، والأساقفة يداهنون أو يحذرون ... لقد كانت الامبراطورية رومانية بالاسم فقط ... إذ لم يبقَ من الدين القديم سوى أساطير هجرها حق الفلاسفة » (١) .

Docoudray, History of Modern Civilisation, pp. 36 – 37.

(١)

كتب بروفيسور ستانلي لين بول ، وهو يقرر أسباب سقوط
امبراطورية المغول في الهند ، كما نقل ذلك سير و.و. هنتر أن
الجنود الأبطال الذين كانوا في أول أيام الامبراطورية ونساءهم
اللواتي لم يكنن أقل بطولة منهم قد خلف من بعدهم خلف
فاسدون من أولاد الاشراف ذوو نشأة رقيقة ناعمة . إن أجداد
(اورا نغزيب) الذين انقضتوا على الهند من الشمال كانوا رجالاً
وجوههم حمر تطفح دماً ويلبسون أحذية تغطي الكعبين ، أما
الحاشية التي نشأ بينها (اورا نغزيب) ، فقد كانوا أشخاصاً
شاحبين يلبسون النقشب^(١) . لقد خاض (بابر) مؤسس
الامبراطورية كل نهر صادفه خلال ثلاثين سنة من الحرب ، أما
النبلاء المترفون الذين كانوا حول الشاب (اورا نغزيب) فكانوا
يلبسون ثياباً ذات طيات عديدة من أكثر أنواع الحرير الأبيض
نعومة ويخرجون للحرب راكبين في هودج ،^(٢) .

وحق في أيامنا هذه لا نجد سبباً لانتهيار فرنسا أعظم شأناً
من الكارثة الخلقية . وقد اعترف قادتها بذلك مراراً في الصحافة
وفي الخطب العامة .

هذه الحقائق التاريخية صارخة جداً لا يستطيع أن ينكرها

(١) جمع نقبة ، وهي ثوب كالأزار يشد كما تشد السراويل . (المترجم)

Stanley Lane - Poole, Mediaeval India, p. 413.

(٢)

باحث نزيه . وهي تضع في الحتام هذه الحقيقة : إن الفساد
الخالقي في الأمة هو الذي يسبب انهيارها . هذا عامل عظيم
الشان .. وهو أصل الأسباب ومنه تتفرع كل الأسباب الاخرى .

يقول القرآن الكريم بكلمات صريحة قاطعة :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق
عليها القول فدمرناها تدميراً » .

سورة الاسراء (١٦)

الخاتمة

أوضحنا في الصعائف السابقة الزوايا المختلفة التي درست منها ضروب النشاط الإنساني التي تحصل في المجموعات الاجتماعية وحلت ثم استخلصت منها نتائج وضعت في شكل قوانين اجتماعية عامة . وقد قلنا أن الجماعات الإنسانية لا تحبب في أعمالها خبط عشواء ، بل تسلك سبيلا واضحة وتقيم شطر غاية معينة ، وإن لما تقوم به من أعمال في حياتها ، منها بلغت هذه الأعمال من السعة والتنوع ، غرضاً ذا معنى .

ويرى شينغلر في المجتمع أو الحضارة كائناً حياً يحيا حياة واحدة فقط ، وأن حياتها هذه مثل حياة الكائن الحي ، لها طفولة وبلوغ وهرم ثم موت لا مفر منه ، وأنها مثل الكائن الحي ، إذا ماتا فليس إلى أحيائها من سبيل .

إن عملية النمو والانحلال الطبيعي هذه التي يمكن أن نسميها بحق النظرية العضوية تجعل حياة الإنسان قائمة لا أمل وراءها .

وهي تعني أن القوة التي بها تقوم حياة كل حضارة ومجتمع قوة محدودة ، وأنها تستنفد لا محالة بمضي الزمن ، ولا أمل في إعادة الحياة إلى الحضارة والمجتمع بعد أن يكونا قد ازدهرا يوماً ما ثم عراهما الانحلال .

إن الخطأ في تفكير شبينغلر أنه يرى في الحضارة والمجتمع كائناً حياً فقط ، ومن التحليل الأحيائي يستنتج أن كل مجتمع إنما يحيا حياة واحدة فقط ، ثم يموت موتاً لا رجعة بعده .

إن الحضارة أو المجتمع ليس كائناً حياً بالمعنى الذي يستخدم به هذا اللفظ في علم الأحياء ، ولذلك لا يستطيع قانون أحيائي أن يفسر نموه وانحلاله تفسيراً وافياً . لقد أظهر باحثو كاروبر وزوروكين^(١) ، بما لا يقبل الشك أن « نظاماً حضارية أو اجتماعية أو مدنيات عظيمة كثيرة ولدت ثم ماتت ثم ولدت ثم ماتت كثيرة ، وأنها ارتقت اجتماعياً وفكرياً وسياسياً ثم انحطت مراراً كثيرة في حياتها التي لم يكدها يكون لطولها حد ، ولم تقتصر على ولادة واحدة وموت واحد ، ولا على حقبة واحدة للازدهار ثم حقبة واحدة للأفول » .

ثم أن ظهور حضارة جديدة أو جماعة اجتماعية جديدة في التاريخ لا يعني ميلاد وحدة كاملة مثل الكائن الحي ، ولا يعني

موتها إنحلالاً أو فناءً تاماً . إن الحضارة والجماعات الاجتماعية تشبه مياه موجات مختلفة إذ تختلط ، فهي لذلك لا تولد قط كما يولد الكائن الحي ولا تموت كما يموت ، وإنما تنبع من عيون وأنهار حضارية مختلفة ، وتتعاظم أحياناً حين تأتيتها تيارات من المدينيات الأخرى ، وتجف أحياناً حين تقل الطاقة المبدعة ، ولكنها تنبثق مرة أخرى في صورة حركة قوية ذات تعبير حضاري . إنها قد تمر بدورات عديدة من سعد ونحس ، ولكنها لن تمحى من الوجود قط .

أن الحضارات والمجتمعات تعيش بأرواحها الخالدة التي لا تموت . ولكن شبينغلر تجاهل هذا الأمر وأقام صرح نظريته على فرض مغلوط هو أن الشكل الظاهري للمجتمع ، والحضارة هو الذي يمثل حياتها ، وانحلال شكله هو نهايته المقدرة . بيد أن الأمر على خلاف ذلك . فالأشكال الاجتماعية والحضارية إنما هي التعبيرات المراتبية عن النظرات المختلفة للحياة الاجتماعية ، وهذه باقية إلى الأبد . نعم إنها تظهر أحياناً وتتوارى أحياناً أخرى ، ولكنها لا تمحى من الوجود .

مات الرومان والإغريق وتهلدم ما شادوه في المجتمع وفي مجال السياسة ، ولكن ما آمنوا به من قيم مادية في الحياة ماثل أمامنا قد بُعث في حياة أوروبا الاجتماعية الحديثة بعثاً تاماً . ومن هذا يتبين أن نظرة شبينغلر ضيقة ومرتبطة بالأرض .

ولقد وسع آرنولد توينبي قاعدة التاريخ الفلسفية بأن نظر

إلى المدينات على أنها وحدات التاريخ الحقيقية ، ولم ينظر إليها
النظرة التقليدية التي تقتصر على سيرة مجتمع أو أمة ما. وحاول
أن يؤكد على ما للإنسان من إبداع ، غير أن رجوعه المتكرر
إلى نعمة « التحدثي والرد » التي تشعرنا بوجودها في مجال العمل
كله ليست سوى « محاولة لصبّ حديد قانون الأجل المقدّر في
مهبّج المعتقدات التي عراها البلى ، على حدّ تعبير فيلسوف كبير.

أمّا هيجل ، ففلسفة التاريخ عنده جزء من فلسفة (الروح
المطلقة) ، والمشكلة التي تواجهه من يتصدى لشرحها هي مشكلة
تتبّع عمل العقل في مجال تجريبي معيّن . ذلك العقل يعمل في
التاريخ – وفي هذا المجال كما في المجالات الأخرى ليس حقيقياً إلا
ما كان موافقاً للعقل لأن أي شيء في الوجود ، إنّما يمثل تجلّي
روح العالم وافصاحها عن ذاتها . وهذا التجلّي ، إنّما يحصل
بالعملية الديالكتيكية . ولا يقف الديالكتيك في حكمة عند
حدود الفكر ، وإنّما يمتد إلى الحوادث بالترتيب الزمني ، لأن
كليهما إنّما تضمها جوانب من كيان واحد متكامل . ولما لم
تكن الحقيقة الكاملة متمثلة في أي شيء سوى المطلق ، فهي
نسبية إذن كأنّ يرى في الشيء من حيث علاقته بالمطلق أن فيه
من الحقيقة درجة أعظم أو أقل ، وبذلك يكون فيه درجة
أعظم أو أقل من الحكمة أو الصدق تبعاً لذلك .

إن فلسفة التاريخ التي جاء بها هيجل تجعل المرء يتساءل ،
هل أن الفلسفة التي توضع على هذه الأسس يمكن أن يستسيغها

التفكير الخلفي؟ ولكنه لم يستطع أن يأتي بجواب مقنع على هذا السؤال وتحاشى هذه القضية بمجرد القول بأن الوحدة الخلقية الصادقة ليست الفرد المجرّد ، وإنما الكائن الحي المعنوي ، وهو الدولة أو المجتمع الذي نشأ فيه ، وأن حقوق هذا الكائن الحي المعنوي ، وهو الدولة أو المجتمع ، يجب أن تعلو على حقوق الفرد المجرّد . وهو لا يرى في هلاك الفرد من أجل خير الكل ، أمراً منافياً للخلق . وفي فلسفة هيجل عذر ومسوّغ لكل ما في التاريخ من مظالم ، والسلطة التي هي قوة غاشمة مجردة تجعلها فلسفة هيجل معبوداً ، وأما الفرد ذاته فتفقده هذه الفلسفة كيانه المستقل تماماً . ومعنى ذلك أن تصير روح الإنسان وخلودها بلا معنى ، وأن يُعلّم الإنسان أن لا يلتزم بالفضيلة ، وإنما أن يحرص على أن يبرهن على أنه دولا بـ مُسنّن جيد في آلة المجتمع المعقدة الهائلة ، وبذلك يفقد الإنسان صلة بالله ويحرم نفسه مما للحياة من قيم رفيعة ويتعلّم أن يعيش بلا إرادة شأنه في ذلك شأن آلة في الكيان الاجتماعي .

أما ماركس فقد رفض ، أو ظن أنه قد رفض ، فلسفة هيجل المثالية برمتها ، واحتفظ بنهجها الديالكتيكي ، غير أنه جرّده من شكله الغامض المتعلق بما وراء الماديات ، وهذا ما يختلف به نهجه عن نهج هيجل . فماركس يرى أن السبب الأكبر لما يحصل في المجتمع من تغير ليس كامناً في أفكاره ، وفي الحق الخالد والعدل الاجتماعي ، وإنما في تغير أساليب الإنتاج والتبادل .

لذلك فالانتقال من مرحلة من مراحل التطور الإجتماعي إلى أخرى لا يكون لأن مبادئ عقلية استجدت أو لأن أفكاراً جديدة عن الحق والعدل ظهرت ، لأن هذه متعلقة بالكيان العلوي ، والذي يجعل قبولها ممكناً هو أن التغيرات التي تحصل في قوى الإنتاج توجد بيئة تجعلها تبدو التعبير الطبيعي عما صار الناس يرغبون فيه . إن النظرية المادية التاريخية تميل إلى أن ترى في قادة الفكر والعمل مجرد حملة للقوى الإجتماعية التي هي في أساسها إقتصادية .

فلسفة التاريخ هذه تختلف عن المبادئ الأخرى التي تعالج ما يحصل في العالم من تغير إجتماعي إختلافاً جوهرياً . فماركس يعتقد أن الحافز المحرك الأكبر للمجتمع البشري المسؤول عن كل ما يحصل من تغير في وعي الإنسان وفكره ، أو الذي يسبب حدوث النظم الإجتماعية المختلفة ، والمنازعات ليس منشؤه الفكر أو الفكرة أو (عقل العالم) أو (روح العالم) وإنما الظروف المادية للحياة ، لذلك فأساس تاريخ البشر مادي تماماً . والظروف المادية للحياة هي الأسلوب الذي يصور به البشر ، باعتبارهم كائنات إجتماعية ، حياتهم المادية ويكسبون معيشتهم وينتجون ويوزعون ويتبادلون البضائع اللازمة لقضاء حاجاتهم ، مستعينين مع هذا الأسلوب بصفاتهم البدنية ومواهبهم العقلية والطبيعة المحيطة بهم . وأهم أنواع ظروف الوجود المادية هو إنتاج الوسائل الضرورية للحياة . ويمكن القول بكلمات بسيطة

أن ماركس يرى أن أسلوب الإنتاج هو الذي يقرر الكيان العلوي الكامل للمجتمع ، شكله الاجتماعي والسياسي ، وقيمه الدينية والحضارية ، بل فكره وآرائه . والنظرية الماركسية تنفي أي وجود للنوازع العليا في الإنسان وتجعل منه مجرد قشة لا حول لها ولا قوة أمام التيارات العنيفة للقوى الاقتصادية .

ولا ريب في أن الظروف الاقتصادية تؤثر على المجتمع غير أن التاريخ لا يؤيد أن الكيان الاجتماعي كله ما هو إلا إنعكاس لأساليب الإنتاج ، فالنسيج الاجتماعي يتألف من أشكال مختلفة من الأفكار والآراء والعادات والتقاليد .

وفضلاً عن ذلك ، فما من سبب يوجب الاعتقاد بأن الجنس البشري لا بد أن يرقى بتأثير ضغط القوى الاقتصادية . أن 'مُوحِّدَ' الفرضية ونقيضها ليس شرطاً أن ينتج عنه نظام أرقى للعالم . فلقد تحسنت وسائل الإنتاج تحسناً مذهلاً ، وازداد النشاط الإنتاجي زيادة غير معتادة ، ولكن ما من أحد يستطيع أن يدعي بأن الموحِّدَ الموجود الآن هو خطوة متقدمة أكيدة في كل جوانب حياة الإنسان . لقد 'حرم' الإنسان الحديث من حرية الإرادة وهشم الفرد تحت ثقل النزعة الجماعية الشديد ، وحرُم راحة الفكر والحياة الروحية الداخلية .

ثم إن في التفسير الماركسي للتاريخ مسوغاً وعذراً لكل طغيان وظلم ، شأنه في ذلك شأن تفسير هيجل ، وحين يُعلَّم المرء الاعتقاد بأن كل شيء في هذا العالم ، إنما هو نتيجة طبيعية

للظروف الاقتصادية ، فإنه لا يستطيع أن يعد شيئاً متفقاً مع الأخلاق ، وآخر مخالفاً لها وشيئاً عدلاً وآخر باطلاً ، فقد حل المجتمع الصناعي الحديث أشكال التسلط السياسي القديمة ، ولكن أنظمة الحكم الطاغية التي نشأت على أنقاضها فاقتها في الوحشية والظلم . فعدم المساواة المتأصل في ملكية الأرض قد أزيل غير أن عدم المساواة الأكثر حركة الذي يتسم به المجتمع الفني صار أكثر خطراً على الأمة من الأشكال الأكثر استقراراً التي تتسم بها السلطة الجائرة . هذه حقائق واضحة ملموسة لا يستطيع أن ينكرها أحد وهي تكذب الدعوى بأن الموحّد يجمع في ذاته ما في الفرض والنقيض من عناصر جيدة ومفيدة جمعاً رائعاً . والشيوعية لم تستأصل أي فكرة رئيسة من أفكار المدنية الرأسمالية البورجوازية ، وإنما اقتصرت على تشجيع الأنانية الجماعية للقضاء على الأنانية الفردية . لقد قبلت بالمقاييس الفاسدة التي تضع الاقتصاد في المرتبة الأولى وتجعل الولاء للضمير الخلقى والحق والله أموراً سخيفة منافية للعقل .

ويتفق فلاسفة التاريخ الغربيون ، على ما بينهم من اختلاف كبير في الرأي ، على النقاط التالية :

(أ) ان الذات الفردية مقيدة : المكان والزمان وليس لها حرية إرادة .

(ب) أن اللاشخصية الجماعية ، وحدها هي الواقعية ، وأن الوجود المستقل للإنسان الفرد ما هو إلا وهم .

(ج) أن الذي يقرر نظرة الفرد والجماعات التي في المجتمع هي الظروف المادية لا ذاته هو .

(د) ما من حق خالده ولا معيار أخلاق وعدل مجرد ، فهذه أفكار تتأثر بالزمان والمكان ، ولذلك ما من قانون ولا أمر يصدر إلى البشر يمكن أن يعد صحيحاً صالحة دائمة وشاملة .

أما الإسلام فراه في فلسفة التاريخ مختلف تمام الاختلاف . لا شك في أنه إذ يدرس البشر لا يغفل الظروف المادية التي تحيط بالإنسان في حياته ، ولكن مركز دراسته هذه هو الإنسان . فهو يمنح الإنسان حرية في الإرادة ويرى فيه أداة قوية لمحاربة الظروف المادية التي يعيش فيها وأن له من المقدرة ما يكفي لصياغة مصيره بتأثير ذاته . وجسمه محدود ومقيد بالبيئة المادية التي هو "مسير" فيها غير أن ذاته غير محدودة بالزمان ولا بالمكان ، وهي قادرة على تجاوز حواجز العالم المادي . لذلك فالإسلام لا يرى أن الظروف المادية هي التي تصوغ شكل مصير الإنسان ، وإنما ذات الإنسان هي التي تقرر شكل حياته الاجتماعية ونمطها ، وإن ما يأتيه الإنسان من عمل في المجتمع ليس تعلياً للروح المطلقة ولا إنعكاساً لأساليب الإنتاج وإنما تعبيراً عن ذاته .

ثم ان الإنسان من حيث هو إنسان لم يحصل له من تغير ، وحواضه هي هي ، ولذلك فمشكلاته ومشكلات الإنسان الذي عاش في عصور ما قبل التاريخ واحدة من حيث الجوهر وأن

تغير حجمها ، وأغلب الظن أن عواطفه ومشاعر الفرح والكره والحسد عنده ذات شبه عظيم بما كان منها عند الإنسان الذي عاش في الماضي السحيق .

والإسلام إذ يرى في الإنسان هذا الرأي يحث البشر على أن يستفيدوا من دروس الماضي ، وتكون لهم منه ، كما يقول القرآن ، (عبرة) ، أي أن ينتقل المرء من أحوال زمنه إلى أحوال الأزمان الماضية ، ويستخلص منها دروساً بالنظر في ما أدت إليه تلك الأحوال في الماضي . هذه النظرة للتاريخ لا تفيد إلا عندما تبقى مشكلات الإنسان على ما هي لا تتغير لأن طبيعة المشكلات إذا تغيرت كانت دراسة الماضي طلباً للعبرة عملاً عقيماً لأنها لا تفيد في الزمن الحاضر فائدة عملية .

ومن هنا نهتدي إلى حقيقة أخرى من حقائق التاريخ . فنحن حين يستقر بنا الاعتقاد بأن طبيعة الإنسان ذاتها لم تتغير نستطيع أن نستنتج بيسر أن الخالق الذي صاغ فطرة الإنسان لا بد أنه قد وضع سنناً تسيّرهما كما يجب ، وهذه السنن الإلهية يجب أن تكون صالحة صلاحاً شاملاً لأنها غير مقيدة أو متأثرة بالزمان أو المكان أو الأحوال المادية المحيطة ، وإنما أريد بها أن توجه فطرة الإنسان التي لا تتغير . لا ريب في أن الإسلام قد أوجد القواعد التي بها يقوم نظام اجتماعي خال من الاستغلال يؤدي إلى أن تنمو حياة الإنسان العقلية والروحية نمواً سليماً ، ولكن هذا الدين الذي أنزله الله يهتم اهتماماً بالغاً بأحداث تغيير

خلقي وروحي في نفس الانسان حتى يتجلى هذا التغيير في الحياة نظاماً خلقياً واجتماعياً جيداً .

أن الاسلام لا يتصور أن القوى الاقتصادية أو المادية وحدها يمكن أن تحدث أي تغيير أو تحول في المجتمع البشري ، وإنما تغيير ما في نفس الانسان هو الذي يتجلى في التغيير الذي يحدثه في ظروف البشر الخارجية . لذلك يمكن أن نقول صادقين ، أن فلسفة التاريخ الاسلامية هي تفسير التاريخ المعنوي لأنها ترى في الانسان كائناً معنوياً . نعم أن الظروف الخارجية تؤثر في حياته ولكن العامل الحاسم هو ذات نفسه فهي إما أن تهديه إلى سبيل الفلاح بأن توجد عنده استشعاراً لوجود الله فيعمل بما يرضيه سبحانه أو تهديه إلى سبيل الخسران والدمار ، إذ يحاول عبثاً أن يتغلب بما أوتي من قوة على شعوره بعدم الأمن ، وبأن يخفي قصور ذكائه بما يزعمه من احاطة علمه ، وبكلمة موجزة ميله إلى أن يقيم من نفسه إلهاً لنفسه .

المراجع

باللغات الانكليزية والعربية والأردنية

- Adam, Brooks, *The Law of Civilization and Decay*
Amir Ali, Syed, *The Spirit of Islam*
Andre, Maurois, *Why France Fell*
Arnold, Thomas, *The Legacy of Islam*
Barthold, V. V., *The Musalman Culture*
Bell, Clive, *Civilization*
Bergson, *Creative Evolution*
Berlin, Isaih, *Karl Marx*
Bohm-Bawerk, E. V., *Karl Marx and the Close of his System*
Burns, Emile, *What is Marxism*
Cole, G. D. H., *The Meaning of Marxism ; The Common People*
Cowell, F. R., *History of Civilization and Culture (An Introduction to the Historical and Social Philosophy of P. A. Sorokin)*
Cowper Poways, *The Meaning of Culture*
Croce Benedetto, *Historical Materialism and the Economics of Karl Marx ; Politics and Morals ; What is Living and What is Dead of the Philosophy of Hegel*
Dobb, Maurice, *Marx as an Economist*
Ducondray, *History of Modern Civilization*

Eastman, Max, *Marxism, Is it a Science? Stalin's Russia and the Crisis of Socialism ; The Last Stand of Dialectical Materialism*

Engels, Friedrich, *Anti-Dhuring*

Federn, Karl, *The Materialist Conception of History*

Flint, Robbert, *A History of the Philosophy of History*

Gibbon, *The Rise and Fall of Roman Empire*

Gide, Charles & Rist, Charles, *A History of Economic Doctrine*

Gray, Alexandar, *The Development of Economic Doctrine*

Hakim, Abdul, *Islamic Ideology*

Hegel, G. W. F., *Lectures on Philosophy of History*, translated by Sibree.

Hilda, D. K. Oakeley, *History and Progress*

Hitti, Philip, K. *History of Arabs*

Hunt Carew, *The Theory and Practice of Communism*

Iqbal, Allama Mohammad, *The Reconstruction of Religious Thought in Islam*

Issawi, Charles, *An Arab Philosophy of History*

Joad, C E. M., *Modern Political Theory ; A Guide to Modern Wickedness ; Great Philosophers of the World ; Philosophy of Our Times*

Joseph R Strayer, *The Interpretation of History*

Khuda Bux, S , *Islamic Civilization*

Kidwal, M. H., *Women*

Lambek, *The Growth of Mind in Relation to Culture*

Laski, H., *The State in Theory and Practice*
 Lenin, V. I., *The Essentials of Lenin ; The Teachings of Karl Marx ; State and Revolution*
 Lindsay, *Karl Marx's Capital*
 Maciver, R. M and Charles Page, *Society*
 Mann, Heinrich, *Neitzsche*
 Mannehem Karl, *Diagnosis of our Time*
 Mandel Baum, *The Problem of Historical Knowledge*
 Marx, Karl, *Capital ; Communist Manifesto ; Contribution to the Critique of Political Economy ; Class Struggle in France*
 Matthews Shailer, *The Spiritual Interpretation of History*
 Mazhar-ud-Din Siddiqi, *Marxism and Islam*
 McTaggart, J. M. E., *Studies in the Hegelian Dialectic*
 Mosley, A. C., *Text Book of Marxist Philosophy*
 Muir Edwin, *Essays on Literature and Poetry (Chapter on Oswald Spengler)*
 Mure, R. G., *An Introduction to Hegel*
 Narain, Prof Brij, *Marxism is Dead ; Indian Socialism*
 Neitzsche, *Thus Spoke Zarathūshtra*
 Nordau, *Interpretation of History*
 Paul, Tillich, *The Interpretation of History*
 Plato, *Republic*
 Rader, Melvin, *No Compromise*
 Russel, Bertrand, *The History of Western Philosophy ; The New Hopes for the Changing World ; The Practice and Theory of Bolshevism*
 Sayyidain, K. G., *Iqbal's Educational Philosophy*
 Schelegal, *The Philosophy of History*

Seligman, *The Economic Interpretation of History*
 Selsam, Howard, *Socialism and Ethics*
 Sheen, J. Fulton, *Communism and the Conscience of the West*
 Sorokin, P. A., *The Crisis of Our Age*
 Spengler, Oswald, *Decline of West (two volumes)*
 Stace, W. T., *Philosophy of Hegel*
 Stalin, J., *Dialectical and Historical Materialism*
 Strachey, John, *The Theory and Practice of Socialism*
 Tara Chand, *The Influence of Islam on Indian Culture*
 Teggart, J. Fredrick, *The Process of History*
 Toynbee, Arnold, *Civilization on Trial; Study of History*
 Webb Clement, *A History of Philosophy*
 Webb's Sidney and Beatrice, *Soviet Communism; New Civilization*
 Zaki Ali, Dr., *Islam in the World*

MAGAZINES AND JOURNALS

Islamic Culture, Hyderabad, India
 Arafat, Lahore, Ed. Muhammad Asad
 The Voice of Islam, Karachi
 Iqbal, Lahore
 Islamic Literature, Lahore
 Islamic Thought, Aligarh

علامہ ابن کثیر دمشقی : تفسیر القرآن العظیم
 علامہ شہاب الدین سید محمود آلوسی : روح المعانی
 مولانا اشرف علی تھانوی : بیان القرآن
 علامہ شبیر احمد عثمانی : فوائد القرآن
 حضرت شاہ ولی اللہ : حجة الله البالغة
 علامہ ابن خلدون : مقدمہ
 علامہ محمد اقبال : ملت بیضا پر ایک عمرانی نظر
 مولانا ابو الکلام آزاد : ترجمان القرآن ، حصہ اول و دوم
 مولانا سید ابو الاعلی مودودی : (الف) تفہیم القرآن ، حصہ
 اول ، دوم ، سوم و چہارم
 (ب) اسلامی تہذیب اور اس اصول و مبادی
 (ج) بناؤ بگار
 (د) تفہیمات ، حصہ اول و دوم
 (ر) تنقیحات
 مولانا عبد الماجد دریا آبادی : تفسیر ماجدی
 علامہ سید سلیمان ندوی : أرض القرآن
 مولانا سید ابو الحسن علی ندوی : (الف) مذهب و تمدن
 (ب) انسانی دنیا پر مسلمانوں عروج و زوال کا اثر
 پروفیسر محمد مجیب : تاریخ فلسفہ و سیاسیات

ذاکثر یوسف حسین خان : روح اقبال
مولانا عبد السلام ندوی : انقلاب امم
مولانا ابو السلام نعیم صدیقی : تخریب و تعمیر
مظہر الدین صدیقی : (الف) اسلام کا نظریہ تاریخ
(ب) ہیگل ، مارکس اور نظام اسلام

المحتوى

٨	بين يدي الطبعة الثانية من الكتاب
٩	بين يدي الكتاب
١١	المقدمة
٢١	النظرة الاحيائية للتاريخ
٦٢	فلسفة هيجل للتاريخ
٨٧	الفكرة المادية عن التاريخ
١٣١	التفسير الاسلامي للتاريخ
١٧١	الخاتمة
١٨٣	المراجع باللغة الانكليزية
١٨٧	المراجع باللغة العربية والفارسية

نطلب بيع منشوراتنا من :

• دار القلم الكويت

شارع السور - عمارة السور - مجوار وزارة الخارجية
صرب ٢٠١٦ هاتف ٤٢٥١٦٠

• الشركة المتحدة للتوزيع

مباني - شارع مورتية - بنائية مكيدي ومبا الحنة
صرب ٧٤٦٠ هاتف ٢٩٥٥٠١